

البَابُ الثَّانِي

فِي الْأَخْلَاقِ

الصدق

الحمد لله ، مدح الصدق ، وأرشد إلى التحلى به ، وذم الكذب ، ونفر من الانصاف به ؛ فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة ، وأمر المؤمنين بمصاحبة الصادقين ، ومجانبة الكاذبين قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)^(١) .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين ، أصدق الناس قولاً ، وأخلصهم عملاً ، وأوفاهم عهداً .

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، أولئك هم المفلحون .
أما بعد :

فإن الصدق من أكرم الصفات الإنسانية ، وأعظم الفضائل الأخلاقية ، وهو أهم الأسس في بناء الأمة وسعادة المجتمع ، إذ به يرتبط كل شأن من شؤون الحياة ، وتتعلق به كل مصلحة من مصالح الناس .

ولذلك أمر الله بالتحلى به ، وجعله خلقاً لحمة وحيه ، ومبلغى رسالته ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة ومثلاً أعلى للصدق في القول والعمل منذ نشأته إلى أن لحق بربه ، وكذلك كان الأنبياء والمرسلون ، يقول الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام : (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)^(٢) ، ويقول عن إسماعيل عليه السلام : (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ

(٢) سورة مريم : ٤١ .

(١) سورة التوبة : ١١٩ .

إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا^(١) .

والمجتمع الإسلامي الأول عاش في ظل الأمن والاستقرار والسعادة ، لأن أفرادهم كانوا يتحرون الحق . ويتصفون بالصدق في علاقاتهم ومعاملاتهم ، وتمشت هذه الفضيلة معهم في كل حياتهم العامة والخاصة ، وتخللت شؤون منازلهم ومعاملة أطفالهم . روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال لَصَبِيٌّ : تَعَالَ هَاكَ تَمَرًا ثُمَّ لَا يُعْطِيهِ شَيْئًا فَقَدْ كَذَبَهُ »^(٢) .

وقد أراد الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا التوجيه إرشاد الآباء والمربين إلى تنشئة الأطفال منذ الصغر على هذه الفضيلة ، حتى يشبوا وفيهم هذا الخلق طبعاً وعادة - ومن شب على شيء شاب عليه - فيتكون بذلك جيل إسلامي فاضل تسعد به الحياة وتنهض به الأمة . وقد اهتم الإسلام بهذا الخلق الحميد وحث على التزامه ، كما نفر من الكذب ونهى عن ارتكابه ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « عَلَيْكُمْ بِالصُّدْقِ فَإِنَّ الصُّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصُّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا »^(٣) ، وما ذلك إلا لأن الكذب خلة رديئة ، وصفة ذميمة أساس الرذائل وأصل الشرور ، فكثيراً ما ضاعت به حقوق ، وانتهكت به حرمان ، وارتكبت جرائم ، فكم من خير كاذب كان سبباً في تقطع الصلات ، وإثارة العداوة بين الناس ، وكم من شائعة كاذبة

(٢) رواه أحمد .

(١) سورة مريم : ٥٤ .

(٣) متفق عليه .

اختلقها شخص مهين ، كان لها أثر سيئ على الأفراد والجماعات . ولذلك سماه الله فاسقاً ، وأمر بالحدز والتحفظ عند سماع أخباره فقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)^(١) .

والكذابون جرائم تفتك بالمجتمع وتودي به ، ومعاول هدم تقضى على بناء الأمة وتنحدر به ، فالصانع الكاذب ، والتاجر الكاذب ، والطبيب الكاذب ، والمربي الكاذب ، والموظف الكاذب ، كل أولئك وبال على المجتمع الذى يعيشون فيه .

والكذب خيانة . فكما تكون الخيانة فى سرقة الأموال تكون فى سرقة العقول ، بالأخبار الكاذبة ، والأحاديث المفتراة ، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كَبُرَتْ خِيَانَةٌ أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ بِحَدِيثٍ هُوَ لَكَ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ لَهُ بِهِ كَاذِبٌ »^(٢) .

وهو من أمارات النفاق لأنه خلاف ما يبطن الإنسان ، فالمستمع يظنه صادقاً ، وهو يعلم من نفسه أنه كاذب ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ »^(٣) .

وقد يدفع الإنسان إلى الكذب مهانة نفس ، ورداءة طبع ، وضعف دين ، فربما يدفعه إلى الكذب اعتقاده أن الكذب يجر إليه نفعاً أو يدفع عنه ضرراً ، وهو فى الحقيقة أبعد عن نفعه ، وأقرب إلى ضرره ، فإن الشر لا يكون خيراً ، والقبیح لا يكون حسناً ، إنك لا تجنى من الشوك العنب ، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « تَحَرَّوْا الصُّدُقَ ، وَإِنْ رَأَيْتُمْ الْهَلَكَةَ فِيهِ ، فَإِنَّ النِّجَاةَ فِيهِ ، وَتَجَنَّبُوا الْكَذِبَ وَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنَّ النِّجَاةَ فِيهِ فَإِنَّ الْهَلَكَةَ فِيهِ »^(٤) .

(١) سورة المجرات : ٦ .

(٢) رواه البخارى .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه ابن أبى الدنيا .

وأشد أنواع الكذب قبحاً ، وأعظمها إثماً ، ذلك الكذب الذى يضر بالناس ، فيلحق بهم تهماً ، أو يضيع لهم حقوقاً ، أو يؤخر لهم مصالح . ولذلك ذم الإسلام شاهد الزور ، وهدده وتوعده ، وجعل تلك الشهادة الكاذبة من أكبر الكبائر ؛ وإحدى الموبقات . فعن أبى بكر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ - ثَلَاثًا - قُلْنَا : بلى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ - وَكَانَ مُتَكِيًا فَجَلَسَ - وَقَالَ : أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ » (١) .

وقد يحمل بعض الناس على الشهادة الكاذبة صلة قرابة ، أو مجاملة صديق ، أو بغض عدو ، أو خشية من ذى بأس وسلطان ، أو طمع وراء عرض زائل ، فيحيفون فى الشهادة لهذه الأسباب .

وكم ترتب على هذه الشهادة الكاذبة من أضرار ، فقد أكلت بسببها أموال بالباطل ، وتبرأ بها مفسدون ومجرمون ، وأدين بها برآء صالحون . ولاقرار الحق ونشر السلام فى الأرض أمر الله أن تؤدى الشهادة على وجهها دون ميل أو كتمان . قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (٢) .

وقد يحمل المرء على الكذب حقد متغلغل ، أو عداوة مستحكم يجعله يفتري أكاذيب يصف بها الآمنين ، ويحيك تهماً يرمى بها البراءة ؛ نكاية

(١) متفق عليه .

(٢) سورة النساء : ١٣٥ .

بهم ، وتشفياً منهم ، وقد جاء الإنذار النبوي لهؤلاء في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَيُّمَا رَجُلٍ أَشَاعَ عَلَى رَجُلٍ كَلِمَةً وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ لَيْسَ بِهِ بِهَا فِي الدُّنْيَا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُذَيِّبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ » ^(١) . والله تعالى يقول مسجلاً عليهم وصفه بعدم الإيمان : (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) ^(٢) .

وبعض التجار قد يدفعه الطمع في الربح الكثير ، والرغبة في الكسب الوفير ، فيعرض سلعته بأوصاف ليست فيها ، أو يطلب ثمناً فيه استغلال وجشع ، ذاكراً أن ربحه فيها قليل ، أو أنه لم يربح شيئاً ، وربما يحلف بالله كذباً على أن ما يقول حق .

والإسلام قد بين أن الكذب لا يزيد في الرزق ، وأن الصدق لا ينقصه ، فالرزق كالأجل محدد مقدر ، ينبغي طلبه من طريق مشروع ، لا من طريق حرام ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفَى رِزْقَهَا ، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ . وَلَا يَخْلِنَكُمُ اسْتِغْنَاءُ شَيْءٍ مِنَ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ بِمَعْصِيَتِهِ » ^(٣) .

بل ذكر أن الكسب الناتج عن طريق الكذب والتضليل كسب لا خير فيه ولا بركة ، فقد ورد في الحديث ، « الْبَيْعَانِ : إِذَا صَدَقَا وَنَصَحَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا ، وَإِذَا كَتَمَا وَكَذَبَا نَزَعَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا » ^(٤) .

وبين رسول الله جزاء التجار الصادقين في بيعهم وتعاملهم ، فقال : « التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ » ^(٥) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني . (٢) سورة النحل : ١٠٥ .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا والحاكم . (٤) متفق عليه من حديث حكيم بن حزام .
(٥) رواه الترمذي .

والصدق لا يُرَغَّبُ عنه إلا إذا كان فيه إفشاء للأسرار . ونقل للأخبار من شخص لآخر ، حتى تفسد المودة ، وتدب بينهما العداوة والبغضاء ، وهؤلاء الذين يسعون في الأرض فساداً ، ولا يرعون للحديث حرمة ، ولا للأخلاق ذمة ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم : « لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَامٌ » (١) .

كما أن الكذب لا يجوز إلا في حالتين : في الحرب للمصلحة ، وتحقيق النفع ، والحرب مبنية على الخداع والتسمويه ، وفي الحديث : « الْحَرْبُ خُدْعَةٌ » (٢) وكان عليه الصلاة والسلام إذا أراد الغزو في جهة ورى بغيرها . ليأخذ العدو على غرة قبل أن يكمل استعدادده بوصول الأخبار إليه ، والحالة الثانية : في الصلح بين الناس وإزالة ما في القلوب من ضغائن وخلافات . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ النَّاسِ فَقَالَ خَيْرًا ، أَوْ نَمَى خَيْرًا » (٣) .

(١) متفق عليه .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

(٣) متفق عليه .

الأمانة

الحمد لله حثنا على أن نتخلق بصفة الأمانة ، ونهانا عن سوء الخلق والخيانة ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أمرنا بأوامر لو التزمنا بها ، وسرنا على جادتها عشنا أعزة مكرمين ، وحصلنا مجد الدنيا والسعادة ، (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جمع مكارم الأخلاق كلها ، فهو قدوة لأمنته ليتأسوا به في صفاته ، ويقتدوا به في أخلاقه ، وقال عن نفسه : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله ، وأصحابه الذين آزره ونصره واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولئك هم المفلحون .

أما بعد : فيقول الله تعالى وهو أصدق القائلين : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ^(١) . صدق الله العظيم .

يا عباد الله : جاء الإسلام بشريعة سمحة بينت الحسن والقبيح ، وأقرت الحق والعدل فمنعت اعتداء الأقوياء على الضعفاء ، وأنصفت المظلومين ، وأعطت كل ذي حق حقه ، وقررت مبادئ سامية تنشر بين الناس المودة ، وتبث فيهم روح المحبة ، وتجعل العلاقة الاجتماعية بينهم قاعة على الثقة المتبادلة والأخوة الخالصة . يحافظ كل إنسان على حقوق غيره من المواطنين ، ويعرف ما له وما عليه ، فاطمأنت النفوس ، وسلمت

(١) سورة الأنفال : ٢٧ .

الأرواح والأموال والأعراض ، ووضح للناس المنهج القويم للآداب والأخلاق .
 وإن من أجل الصفات التي حثت عليها شريعة الإسلام صفة الأمانة ،
 وهي في حقيقتها شعور المرء بتبعته في كل أمر يوكل إليه ، فيراقب ربه
 الذي يطلع على سره وعلايته ، ويعلم نجواه وحركات نفسه : (وَهُوَ اللَّهُ فِي
 السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ) ^(١) . ولكي
 يتخلق الإنسان بهذه الصفة ، عليه أن يكون ذا ضمير يقظ ، يدفعه إلى
 فعل الخير ، واجتناب الشر . ويحفزه إلى أن يؤدي ما عليه من واجبات ،
 بعزيمة صادقة وهمة عالية ، نتيجة هذا الضمير الحي ، وثمرة مراقبة الله رب
 العالمين ، هذه المراقبة التي تدعو إلى أداء الواجب على أكمل وجه وأحسنه ،
 ولو نامت أعين الرقباء ، وتبعد الإنسان عن الوقوع في الجرائم والشرور ،
 ولو سنحت لهم الفرص وغفل عنهم الحراس .

والأمانة هي الخلق الذي يتواصى المسلمون برعايته ، ويستعينون الله على
 حفظه ، فإذا ما أراد صديق أن يودّع صاحبه المسافر لم يجد خيراً من الدعاء له
 بأن يحفظ الله له نعمة الأمانة . . وقد علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
 هذا الدعاء بقوله للمسافر : « اسْتَوْدِعِ اللَّهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ » ^(٢) ،
 وعن أنس رضى الله عنه قال : « مَا خَطَبْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا
 قَالَ : لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ » ^(٣) .

وكثيراً ما كان الرسول يستعيد من الخيانة التي تؤدي إلى سوء المنقلب
 في الآخرة كما يستعيد من شقاء العيش في الدنيا ، فقد قال : « اللَّهُمَّ إِنِّي
 أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ ، فَإِنَّهُ يَفْسِدُ الصَّجِيعُ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ ، فَإِنَّهَا

(٢) رواه الترمذی .

(١) سورة الأنعام : ٣ .

(٣) رواه أحمد .

بِئْسَتِ الْبَيْطَانَةُ^(١) . والأمانة صفة أنبياء الله ورسله ، فهم في الذروة العليا من مكارم الأخلاق ، ولهذا كانت من صفاتهم الواجبة لهم ، التي تميزهم عن غيرهم ، وقد شوهدت مخايل الأمانة على موسى حين سقى لابنتي الرجل الصالح ، ورفق بهما وكان معهما عفيفاً شريفاً ، وذلك قبل أن يبعث بالرسالة (فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ . فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ، قَالَتْ : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ، قَالَ : لَا تَخَفْ ، نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَتْ إِحْدَاهُمَا : يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ^(٢)) وسيدنا يوسف كان أميناً في بيت العزيز ، فحينما تعرض لموقف من مواقف الفتنة ، وتعرضت له امرأة العزيز رد عليها بقوة : (مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ . إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ^(٣)) . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقب قبل بعثته بالصادق الأمين . واستمر هذا اللقب له حتى من أعداء دعوته الذين اتهموه بالسحر والكهانة ، إلا أنهم كانوا يقدرون فيه صدقه وأمانته ، ولا غرو في ذلك فقد مدحه ربه بقوله : (وَلَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ^(٤)) . والعرب بفطرتهم الأصيلة ، وبنفوسهم الصافية ، كانوا يكرهون أشد الكراهية صفة الخيانة ، ويعتونها منقصة للإنسان ، وطريقاً يصل به إلى الضُّعة والهوان

وهذا هو لبيد بن ربيعة ، الشاعر العربي المشهور وأحد المخضرمين الذين عاشوا الجاهلية والإسلام ، لما أحسَّ بدنو أجله لم يختار إلا بيتاً واحداً جامعاً لأشرف ضروب الوفاء ، وصف نفسه به فقال :

(٢) سورة القصص : ٢٤ - ٢٦ .

(٤) سورة القلم : ٤ .

(١) رواه أبو داود .

(٣) سورة يوسف : ٢٣ .

تمنى ابتئى أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربعة أو مضر؟
 فإن حان يوماً أن يموت أبوكما فلا تخميشاً وجهاً ولا تخلقاً شعر
 وقولا : هو المرء الذى لا حليفه أضاع ، ولا خان الصديق ولا غدر

* * *

أيها المسلمون : ليست الأمانة مقصورة على حفظ الودائع ، وردها
 إلى أصحابها كاملة ، بل ذلك أحد مظاهرها ، والله تعالى قد أمرنا برد الأمانات ،
 وأداء الودائع إلى أصحابها فقال : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى
 أَهْلِهَا)^(١) . وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم
 قال : « مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ
 إِتْلَاقَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ »^(٢) . بل إن الأمانة أعم من ذلك وأشمل ، فهي تكون
 على السر بالكتان ، وعلى المال بالحفظ ، وعلى العرض بالصيانة ، إنها تشمل
 أمانة الإنسان على نفسه ، وعلى كل عمل يليه ، والله تعالى سمي التكليف
 والشرائع أمانة ، حيث قال : (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ
 ظَلُومًا جَهُولًا)^(٣) .

أمانة التكليف هذه أمانة ضخمة ، فالمخلوقات العظيمة من السموات بما
 فيها من شمس وقمر وكواكب ، والأرض بما تحمل من جبال ووهاد وأنهار
 وأشجار ، أشفقت من حمل الأمانة ، لعظم المسؤولية ، وحملها الإنسان
 الذى يعرف الله بإدراكه وشعوره ، ويهتدى إليه بمعرفته وتدبره ، ويسعى في
 الأرض بإرادته ، ويختار طريقه وهو يعرف أين يؤدي به هذا الطريق ، وبهذا

(٢) رواه البخارى .

(١) سورة النساء : ٥٨ .

(٣) سورة الأحزاب : ٧٢ .

امتاز الإنسان على كثير من خلق الله ، واستحق التكريم الذى أعلنه الله فى الملا الأعلى ، وهو يأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وأعلنه فى القرآن الكريم فى قوله : (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) ، وبحملة هذه الأمانة أكد حريته وإرادته فيما يفعل وفيما يذر ، ومن ثم فهو يتحمل مسؤولية اختياره ، حتى يكون جزاؤه عن عمله : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) ^(١) .

وحرص الإنسان على أداء واجبه كاملا فى العمل الذى يوكل إليه ، مظهر من مظاهر الأمانة ، فإخلاص الرجل فى عمله ، وحرصه على إجادته وإتقانه ، صفة المسلم الحق ، واستهانة الفرد بما يكلف به من أعمال يستتبع شيوع التفريط فى حياة الجماعة كلها ، ولا يرضى بذلك الإسلام ، والقرآن الكريم يمدح الذين يراعون الأمانة فى أعمالهم فيقول : (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ، أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَّمُونَ) ^(٢) .

ومن الأمانة ألا يستغل الرجل منصبه الذى عين فيه لجر منفعة شخصية له ، وألا يستخدم نفوذه لنفع قرابة له ، فإن المساس بالمال العام جريمة ، والمجتمعات التى تبنى نفسها على دعائم قوية من الفضيلة والخلق الرفيع تطلب من أبنائها أن يعفوا عما تحت أيديهم ، وأن تكون لهم نفس عالية ، فلا يتطلع الواحد منهم إلى الاستحواذ على ما ليس له ، مستخدماً الحيلة والخديعة ... من فعل ذلك فإنه يكون معوقاً لنهضة مجتمعه ، ويستأهل الأخذ على يده بشدة ، وله فوق ذلك الوعيد الشديد ممن لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، وقد قال جل شأنه : (وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :

ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ^(١) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مبيناً معنى الغلول : « مَنْ اسْتَعْمَلَنَا عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقًا فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ » ^(٢) ؛ لَأنَّه اختلاس من مال الجماعة الذي ينفق في رعاية الضعفاء والفقراء ، ويرصد للمصالح العامة . وقد شدد الإسلام في ضرورة التعفف عن استغلال النفوذ ، وفي رفض الهدايا التي تعطى رِشوة في سبيل قضاء مصلحة ، فقد حدث أن استعمل النبي رجلاً من الأزد يقال له : ابن اللُثَيَّة على الصدقة ، فلما قدم بها قال : هَذَا لَكُمْ ، وَهَذَا أَهْدَى إِلَيَّ ، قال راوى الحديث : فقام رسول الله ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي اسْتَعْمَلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا وَلَّاهُ اللَّهُ ، فَيَأْتِي فَيَقُولُ : هَذَا لَكُمْ ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أَهْدَيْتُ إِلَيَّ ، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا ؟ ! وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُعَاءٌ ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُورٌ ، أَوْ شَاةٌ تَبْعَرُ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَى بَيَاضَ إِبْطَيْهِ ، يَقُولُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ ؟ ! » ^(٣)

يا عباد الله :

إن الأمانة في الإسلام واسعة الدلالة ، وهي تشمل جوانب حياتنا كلها ، وتلازمنا في علاقتنا بأنفسنا ، وعلاقتنا بخالقنا ، وعلاقتنا بأسرتنا ، وبالمجتمع الذي نعيش فيه ، ومناطها جميعاً شعور المرء بتبعته في كل أمر يوكل إليه ، وإدراكه بأنه مسئول عنه أمام ربه ، حسبما ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالْإِمَامُ

(١) سورة آل عمران : ١٦١ .

(٢) رواه أبو داود .

(٣) رواه مسلم .

رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ،
وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ
سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » (١) .

إن كل ما وهبنا الله من نعمٍ أمانةً بأيدينا ، فلا ينبغي أن نفرط فيها ،
فحراسنا التي أنعم الله بها علينا أمانة ، والمواهب التي يخص الله بها المجدين
العاملين أمانة ، وما حُبِّبنا من أموال وأولاد أمانةً ، فيجب أن نستخدم كل
ذلك في قربات الله ومرضاته ، ولا ننحرف بواحد منها عن طريقه السوي ،
ولو فقه كل فرد في المجتمع دوره فيه ، وفقه ما يجب أن يقوم به ، والتزم
بذلك ونفذه ، لسعدت الأمة ، وسعد أبنائها جميعاً ، واستحقوا الأمن الذي
وعد الله المؤمنين المخلصين في قوله : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ
أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (٢) .

فاتقوا الله عباد الله ، وتخلقوا بصفة الأمانة ، ونشثوا أولادكم على هذه
الفضيلة ، فيشبهوا وهم رجال لهم خلقهم الرفيع ، وبذلك يكتب الله لنا السعادة
التوفيق .

(١) رواه البخاري .

(٢) سورة الأنعام : ٨٢ .

الوفاء

الحمد لله الذى غرس فى قلوب الصالحين معرفته ، وأقام على الفطرة السليمة دينه : (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) ^(١) ، وأشهد أن لا إله إلا الله أمر بالاعتصام به وشكر نعمته وأداء حقوقه : (أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) ^(٢) . وأشهد أن محمداً رسول الله ، ربى صحابته على البطولة والفداء ، والرجولة والوفاء ، فهم كما وصف الحق : (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) ^(٣) . اللهم صلى على سيدنا محمد وآله وأصحابه والتابعين .

أما بعد . . .

. . . فإن المسلم إذا أبرم عقداً ، يجب أن يحترمه ، وإذا أعطى عهداً ، يجب أن يلتزمه ، ومن حقيقة الإيمان أن يكون الإنسان عند كلمته التى قالها ، لا ترجعه عنها رغبة ولا رهبة ، وأن يكون مقترناً بمبدأ شريف ، لا يميل عنه ولا يساوم عليه ، والإسلام يوصى باحترام العقود التى تسجل فيها الالتزامات المالية وغيرها ، ويأمر بإنفاذ الشروط التى تضمنتها ، وفى الحديث : « الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ » ^(٤) . ولا شك أن انتشار الثقة فى ميدان التجارة وشتى المعاملات الاقتصادية أساسه افتراض الوفاء فى أى تعهد . ويجب أن تكون الشروط المكتوبة ، متفقة مع حدود الشريعة ، وإلا فلا حرمة لها ، ولا يكلف المسلم بوفائها . . .

(٢) سورة البقرة : ٤٠ .

(٤) رواه البخارى .

(١) سورة الأنعام : ١١٥ .

(٣) سورة الأحزاب : ٢٣ .

وقد منح الإسلام عقد الزواج مزيداً من الرعاية فقال رسول الله : «إن أَحَقَّ مَا وَفَيْتُمْ بِهِ مِنَ الشُّرُوطِ مَا اسْتَحَلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ» ، ومن ثم فليس يجوز لرجل بنى بامرأة ، أن يغتال درهماً من حقها ، أو يستخف بالرباط الذى جمعه بها . وفى الحديث : «أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً - عَلَى مَا قُلَّ مِنْ الْمَهْرِ أَوْ كَثُرَ - لَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُودَى إِلَيْهَا حَقُّهَا ، خَدَعَهَا ، فَمَاتَ وَلَمْ يُودَ إِلَيْهَا حَقُّهَا ، لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ زَانٍ ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ اسْتَدَانَ دِينًا ، لَا يُرِيدُ أَنْ يُودَى إِلَى صَاحِبِهِ حَقَّهُ خَدَعَهُ حَتَّى أَخَذَ مَالَهُ ، فَمَاتَ وَلَمْ يُودَ إِلَيْهِ دِينَهُ ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ سَارِقٌ» (١) ! !

ولا غرو فقد تنابعت آيات القرآن ، تحض على الوفاء وتخوف من الغدر : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) (٢) وقال تعالى : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) (٣) .

وقد بيّن الله عز وجل أن الغدر ينزع الثقة ، ويشير الفوضى ، ويمزق الأواصر ويرد الأقوياء ضعافاً واهنين ، فقال : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ، تَخْذِفُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ، أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ، وَلِكَيْبِنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (٤) .

إن الرجل قد يحل عقداً أبرمه ، ينتظر ربحاً أوفر من عقد آخر ، وإن الأمة قد تطرح معاهدة بينها وبين أمة أخرى ، جرياً وراء مصلحة أحظى لديها ، والدين يكره أن تداس الفضائل فى سوق المنفعة العاجلة ، ويكره أن تنطوى دخائل الناس على هذه النيات المغشوشة ، ويوجب الشرف على

(١) رواه الطبرانى . (٢) سورة الإسراء : ٣٤ . (٣) سورة النحل : ١ ، ٩٢ .

الفرد والجماعة حتى تصان العقود ، على الفقر والغنى ، وعلى النصر والهزيمة ،
ولذلك يقول الله - بعد الأمر الجازم باحترام العهود - : (وَلَا تَخْلُوا
أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّ
مَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (١) . ومن الشئون التى اهتم
الإسلام بها ، ونوه بقيمة الوفاء فيها - الديون ؛ فإن سدادها من أكد الحقوق
عند الله . وقد قطع الدين قطعاً عنيفاً وسأوس الطمع التى تنتاب المدين وتغريه
بالمطال ، أو إرجاء القضاء . . .

وأول ما شرعه الإسلام فى هذا أن حرم الاستدانة إلاً للحاجة القاهرة
فمن الورطات المخوفة ، أن يقترض المرء فى أمور يمكن الاستغناء عنها . بل
لقد روى أن ذلك من الآثام التى يلحقها القصاص .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يَدْعُو اللَّهُ بِصَاحِبِ الدِّينِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يُوقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَيُقَالَ : يَا ابْنَ آدَمَ ، فِيمَ أَخَذْتَ هَذَا
الدِّينَ ؟ وَفِيمَ ضَيَعْتَ حُقُوقَ النَّاسِ ؟ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّنِي أَخَذْتُهُ
فَلَمْ أَكُلْ ، وَلَمْ أَشْرَبْ ، وَلَمْ أَلْبَسْ ، وَلَمْ أَضَيِّعْ ، وَلَكِنْ أَتَى عَلَى
إِمَّا حَرَقٌ ، وَإِمَّا سَرَقٌ ، وَإِمَّا وَضِيعَةٌ ! فَيَقُولُ اللَّهُ : صَدَقَ عَبْدِي ، أَنَا
أَحَقُّ مَنْ قَضَى عَنْكَ ، فِيدْعُوا اللَّهَ بِشَيْءٍ فَيَضَعُهُ فِي كِفَّةٍ مِيزَانِهِ ، فَيَرْجِعُ
حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ » (٢) .

ويظهر من هذا أن الله يعذر من يضطر إلى الدين لأزمات شداد ، ومن
يعجز عن القضاء لمصائب جائحة . أما الذى تمر بنفسه شهوة طارئة .

(٢) رواه أحمد بن حنبل .

(١) سورة النحل : ٩٤ و ٩٥ .

ويضعف عن إجابتها من ماله ، فيسارع إلى الاقتراض من غيره ، غير ناظر إلى عقباه ، ولا مهم بطريقة الخلاص من دينه ، فهو - كما وصفته الآثار - سارق جرى .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا ، أَتْلَفَهُ اللَّهُ » ^(١) . والإسلام يريد أن يوفر للديون ضمانات شتى ، حتى تعتبر أموالاً حية ، وحتى يرى الوفاء بها ضربة لازب ، وحتى لا يحاول أحد الفرار من أداء الحق المكتوب ، ولو بأداء عبادات أخرى رفيعة الأجر .

عن أبي قتادة رضى الله عنه : « قال رجل : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَتُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ ؟ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نَعَمْ ، إِنْ قُتِلْتَ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ ! ثم قال : كيف قلت ؟ فأعاد . قال : نَعَمْ إِلَّا الدَّيْنَ فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ » ^(٢) .

وفي رواية أخرى : « يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ » ^(٣) .

ولما علمه العقلاء من خطر الدين على آخرة المسلم ومنزلته كانوا ينصحونه بالتخلص منه قبل أن يقدم على أى مخاطرة ، قد تودى بحياته . فعن أبي الدرداء : « أنه كان يقف حين ينتهى إلى الدرب في يمر الناس إلى الجهاد . فينادى نداء يُسمع الناس : يا أيها الناس . من كان عليه دين يظن أنه إن أصيب في وجهه هذا لم يدع له وفاء فليرجع ولا يتبعنى ، فإنه لا يعود كفافاً » ^(٤) .

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه رزين .

والوفاء بالعهد يحتاج إلى عنصرين ، إذا اكتملا في النفس سهل عليها
أن تنجز ما التزمت به ، فإن الله أخذ على آدم أبي البشر ، عهداً مؤكداً ألا
يقرب الشجرة المحرمة ، لكن آدم ما لبث أن نسي وضعف :

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) ^(١). فضعف
الذاكرة ، وضعف العزيمة ، عائقان كثيفان عن الوفاء بالواجب . والإنسان
- لتجدد الحوادث أمامه ، وترادف الهموم ، المختلفة عليه - يفعل الزمان
فعله العجيب في نفسه ، فتخبو المعالم الواضحة ، ويمسى ما كان بارزاً في
نفسه لا يكاد يبين . ولهذا افتقر إلى مذكر دائم ، يغالب أمواج النسيان ،
ويمسك أمام عينيه ما يوشك أن يذهل عنه ، وما أكثر آي القرآن التي تواردت
لتصون هذا الذكر :

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا
مَا تَذَكَّرُونَ) ^(٢).

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ) ^(٣).
(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ) ^(٤).
(كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) ^(٥).

والذكر المطرد اليقظ ، ضرورة لازمة للوفاء ، فمن أين لناسي العهد أن
ينفي به ؟ لذلك ختمت آية العهد بعنصر التذكير : (وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ،
ذَلِكَكُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) ^(٦) ، فإذا ذكر المرء الموثق المأخوذ عليه .
يجب أن ينضم إلى هذا الذكر عزم مشدد على إنفاذه ، عزم يذلل الأهواء

(١) سورة طه : ١١٥ . (٢) سورة الأعراف : ٣ .

(٣) سورة الأنعام : ١٢٦ . (٤) سورة الأعراف : ٢٦ .

(٥) سورة الأعراف : ٥٧ . (٦) سورة الأنعام : ١٥٢ .

الجامحة . ويهون الصعاب العارضة ، عزم يمضي في سبل الوفاء مهما تجشمت من مشاق ، وغرم من توضحيات .

وأقدار الرجال تتفاوت تفاوتاً شاسعاً في هذا المضمار . فإن ثمن الوفاء قد يكون فادحاً ، يكلف المال أو الحياة أو الأحبة . ولكن شرف الأفراد والجماعات منوط بفضيلة الوفاء مهما كلف الوفاء أصحابه من مغارم وتوضحيات . . . ! وقد حكى لنا التاريخ كيف حافظ رجال على شرف الكلمة ، وبذلوا دونها أولادهم ، وكيف حافظت أمم على ما أعطت من موثيق وبذلت دونها النفس والنفس . . . وقد ذهب ما يحرص عليه الجبناء والبخلاء من حياة وثراء . وبقي الخلود للشرف والوفاء ، وبقيت الأمجاد لأهل المروءة والصدق . وحسبنا أن القرآن الكريم لما حكم على الأمم البائدة بالهلاك ذكر لنا أنها استحققت ذلك الحكم بغدرها ونكوصها وذلولها عن حق الكلمة ، ومعنى الوفاء ، فقال جل شأنه : (تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ، وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)^(١).

الإخلاص

الحمد لله رب العالمين ، يرفع أقدار المخلصين ، ويؤيد بنصره المؤمنين ،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ
وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، الأسوة
الحسنة للمخلصين الصادقين ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه ، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فكانوا الهداة الراشدين
والقادة الصالحين . أما بعد :

فيقول الله عز وجل مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم : (قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ
وَنُكِبِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ
وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (١) .

في هذه الآية الكريمة يوجه الله نبيه صلى الله عليه وسلم وجهة الخير ،
ويرشده إلى الطريق المستقيم في كل أمره ، حين يذكره بأن من واجبه أن
يكون في سلوكه وقوله وفعله متجهاً إلى ربه ، لا يشرك به أحداً من خلقه ،
مخلصاً له في سره وعلنه ، ودينه ودنياه ، لا ينظر إلى مغنم أو مظهر ، أو جاه
أو لقب ، أو تقدم أو تأخر ، ولا يتردى في نقائص الأعمال ، أو ينحرف
إلى رذائل الأخلاق . قال تعالى : «قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ
الدِّينَ» . وقال : (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)
بذلك المنهج أمر صلى الله عليه وسلم طول حياته . وهذا هو الإخلاص
الذي أمر الله به المؤمنين حين قال : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ) (٢) .

(١) سورة الأنعام : ١٦٣ .

(٢) سورة البينة : ٥ .

فالإخلاص نور يقذفه الله في قلوب المصطفين من عباده ، يصلهم بالله خالقهم ، ويحيي منهم موات قلوبهم ، ويهبهم في الحياة طاقات من القوة تسمو بهمهمهم ، وتعلو بعزائمهم ، وتنهض بمثلهم ومبادئهم ، وتحلها المكان الأول من حياتهم ، فلا أثر ولا أناتية ، ولا رياء ولا نفاق ولكن طهر وصفاء ، وكمال ونقاء ، به يبلغ الإنسان الذروة من السمو والرفعة ، ويحتل منازل الأبرار والمقربين . فيقول صلى الله عليه وسلم : « طُوبَى لِلْمُخْلِصِينَ الَّذِينَ إِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرِفُوا ، وَإِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا ، أُولَئِكَ هُم مَصَابِيحُ الْهُدَى تَنْجِلِي بِهِمْ كُلُّ فِتْنَةٍ ظُلُمَاءٌ » (١) .

وبه يكمل إيمان المؤمن ، ويتحرر من نزواته وغرائزه ، وشهواته وعاداته ، ويستعلى على حظوظ هذه الحياة . سمواً بنفسه أن تسيطر عليه بزينتها وزخرفها فلا يعميه الحب عن الحق فيميل عنه ، ولا ينسيه البغض مرارة الباطل فيتردى فيه ، عطاؤه في الله ، ومنعه في الله ، وجهه في الله ، وبغضه في الله ، طمعاً في رحمته ، ورغبة في رضاه ، قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ ، وَأَعْطَى لِلَّهِ ، وَمَنَعَ لِلَّهِ - فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ » (٢) .

والإخلاص وحده هو الذى توزن به الرجال ، وتقدر به الأعمال ، والله سبحانه لا ينظر من الناس إلى المظاهر والأشكال ، قال صلى الله عليه وسلم : « إِنْ اللَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ » . والعمل لا نور له ، ولا يعتد به إلا إذا صدر عن نية طيبة خالصة ، وكانت غايته تحقيق الخير للفرد والجماعة ، وابتغى به وجه الله ولو بذل في سبيله كل ما يعتز به الإنسان في هذه الحياة . قال تعالى : (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

(١) رواه البيهقي عن ثوبان .

(٢) رواه الترمذي بسند حسن .

يُؤَادُونَ مَنْ خَادَّ اللَّهَ وَرُسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ .
 قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ
 وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » ^(١) . وحين سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ،
 ويقاتل حمية ، ويقاتل رياءً ، أى ذلك في سبيل الله ؟ فقال عليه السلام :
 « مَنْ قَاتَلَ لِيَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ^(٢) . أى قَاتَلَ
 مِنْ أَجْلِ إِخْلَاءِ كَلِمَةِ الْحَقِّ وَرَفْعِ رَأْيِهِ .

والتخلق بصفة الإخلاص والصدق يكسب الفرد النجاح والظفر ،
 ويشرح بالخير صدره ويملاً بالنور قلبه ويكون به في حياته من السعداء
 الآمنين والجماعة التي تتألف من أفراد مخلصين تتميز بسمو
 غايتها ، ونبل مقصدها ، وترفع عن التورط فيما يعييبها أو يحط من
 قدرها ، وتعيش وهي تظللها ألوية المحبة ، ويعمها الأمن والسلام .
 ويجعل الله لها من كل ضيق فرجاً وفي كل شدة مخرجاً . وحديث الثلاثة
 الذين آواهم الغار وتعرضوا فيه للهلاك لم ينجهم إلا إخلاصهم وصالح عملهم .
 عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه ،
 فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا إنه لا ينجيكم من
 هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم : اللهم كان
 لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً - فنأى بي
 طلب شجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما . فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما
 نائمين . فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً . فلبثت والقده على يدي
 أنتظر استيقاظهما ، حتى برق الفجر . زاد بعض الرواة : والصبية يتضاوون

عند قدمي : فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة . فانفجرت شيئاً لا يستطيعون الخروج . قال النبي صلى الله عليه وسلم : قال الآخر : اللهم كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إلي فأردتها عن نفسها فامتنعت مني حتى أملت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت : لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه فتخرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفجرت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها . قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الثالث : اللهم إنني استأجرت أجراً وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءني بعد حين فقال لي يا عبد الله أدِّ إلى أجرى فقلت كل ما ترى من أجرك من الإبل والغنم والرقيق ، فقال يا عبد الله لا تستهزئ بي فقلت إني لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه . فانفجرت الصخرة فخرجوا يمشون^(١) .

ولقد كان لذلك أثره في الرعي الأول من الصحابة والتابعين ، أولئك الذين رباهم أكرم الخلق على مائدة هذا الدين ، فغذوا منها بالإخلاص لله ، وطبعت نفوسهم على الاعتزاز به وحده ، وتلمس العزة والكمال منه دون سواه ، وإفراده بالألوهية التي تخشع لها القلوب . وتعنو لجلالها الجباه . فكانوا بذلك في الدنيا سادتها ، والعازفين عن زخرفها ، وما فيها من متاع أو

زينة ، أو جاه أو سلطان . وانطلقوا إلى تحقيق غايتهم الكبرى ينشدون إقامة الحق والعدل ، وينشرون في الأرض دين الله ولقد مكن الله لهم ، وأمدهم بمدد من عنده ملكوا به ناصية هذا الوجود ، وبوأهم في دنيا الناس مكان صدق ، ومنزل فخار ، سنة الله التي لا تتبدل ، ينصر من نصره ، ويعز من اعتر به ، ويمكن لمن أقام دينه وعظم شريعته ، قال تعالى : (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) ^(١) وعن مُصعب بن سعيد عن أبيه قال ظن أبي أن له فضلا على من دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ» ^(٢) وعن ثوبان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «طوبى للمخلصين أولئك مصابيح الهدى تنجلي عنهم كل فتنة مظلمة» ^(٣) . وعلى هدى من ذلك كله فإن الجهد الصادقة قلت أو كثرت ، والنوايا المخلصة الصالحة تكشف أمام صاحبها الطريق . وتعبد له سبل الوصول إلى آماله وأمانيه . وتجعلها بين يديه قريبة المنال محققة الوقوع ، ولو كانت كأمثال الجبال .

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه قال ، حين بعثه رسول الله إلى اليمن : يا رسول الله أَوْصِنِي قَالَ : «أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِكَ الْعَمَلُ الْقَلِيلُ» ^(٤) .

وإن ذلك ليلقى على أبناء هذه الأمة واجب العمل الجاد ، والتضحية الكبيرة في سبيل المبادئ والمثل ، ومن أجل القيم الروحية ، والكرامة الإنسانية ، ولو كان في ذلك مفارقة الدنيا وما فيها من مرتخص وغال قال تعالى : (إِنَّ

(١) سورة الحج : ٤٠ ، ٤١ .

(٢) رواه النسائي .

(٣) رواه البيهقي .

(٤) رواه الحاكم .

اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ . .)

يحدثنا التاريخ أن صهيياً لما أراد الهجرة تصدت له قريش قائلة : أتيتنا صعلوكاً فقيراً فكثير مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك . فقال لهم صهييب : أرايتم إن جعلت لكم مالى أتدخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم . قال : فإننى قد جعلت لكم مالى كله ، قبلن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ربح صهييب^(١) ، وفيه وفى أمثاله نزل قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ) وأمتنا الإسلامية لم تبلغ ما بلغت من العزة والقوة إلا بفضل إخلاصها لله خالقها ولبادئها وعقائدها ، إخلاصاً خالط المشاعر والقلوب . وتطبيقاً له فى كل مجالات الحياة نظرياً وعملياً . إيماناً منها بأنه وحده سلاحها الذى لا يقهر ، وعُدتها التى لا تهزم ، أو تغلب . قال تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) . وقال سبحانه : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) .

ولكى لا تتعرض لهزات تهدد كيانه المادى والأدبى كان عليها أن تنهج هذه السبيل لتظل محتفظة بكل مقوماتها ، وإلا تقطعت أوصالها ، وصارت نهياً لكل طامع وعاد ، وصدق عليها قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا ، قَالُوا : آمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ يَوْمٌ كَثِيرٌ ، وَلَكِنْ كُنْكُمْ

(١) رواه ابن مردويه ، كما روى بأسانيد مختلفة عند تفسير آية : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله . . . » (البقرة) .

غُثَاءَ كَفْثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَزِغَنَّ اللَّهُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ أَعْدَائِكُمْ وَلَيُلْقِيَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ، قَالُوا : وَمَا الْوَهْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ ^(١) .

والعالم الإسلامي والعربي اليوم أخرج ما يكون إلى الاستنارة بالآثار المترتبة على الاستمسك بالمثل العليا ، والمبادئ القويمة والوقوف معها دفاعاً عنها ، وتضحية من أجلها ، وتطبيقاً لها في السلوك الخاص والعام . وأبناء الإسلام بحاجة إلى التكتل والإخلاص لتحطيم كل الأغلال ، وتحقيق الأماني الكبار ، فيد الله مع الجماعة . والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . والبطولات الإسلامية التي روعت طواغيت الأرض ، ودكت بقوتها الأصنام ، ورفعت ألويا الإسلام في شتى بقاع الأرض ، إنما صنعها الإخلاص . ويمكن لها التعاون فيما يرضى الله رب العالمين . إن الإخلاص في العمل روحه ، وهو بدونه هباء ولا ثمرة له ، وهو في العبادة تمام المراقبة لله والغنى عما سواه ، قال تعالى : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) ^(٢) وهو في عمل الدنيا جماله وكماله ، يجعل منه أداة الخير ، ووسيلة النفع لصاحبه ، ولبنى الإنسان ، وهو السبيل إلى جعل الحياة سعيدة بمن فيها ، آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً بإذن الله . قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

وهو في الجهاد تضحية وفداء ، وبذل واستشهاد ، ونصرة للحق ، وخللان للباطل ، ودفع للظلم والعدوان ، وحرب على الذل والهوان ، والاستعمار والاستبداد ، به خاض الأولون غمار الشدائد . وواجهوا ما لا قبل لأحد باحتماله

(١) رواه الترمذي عن ثوبان .

(٢) سورة الكهف : ١١٠ .

من عناء وبلاء . شعارهم قول الله سبحانه : (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) .

فاتقوا الله عباد الله ، واعتصموا بالله هو مولاكم ، واذكروه في جميع أعمالكم ، واحذروا من الناس الضعفاء المرائيين ، والأغرار المخادعين ، فإنهم أضروا على الأمة من أعدائها السافرين .

واذكروا قول الله عز وجل : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)^(١) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ - فَارَقَهَا وَاللَّهُ عَنْهُ رَاضٍ »^(٢) .

(٢) رواه ابن ماجه والحاكم عن أنس بن مالك .

(١) سورة الزلزلة : ٧ ، ٨ .

أدب الحديث

الحمد لله الجليل الشان ، الواسع السلطان : (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)^(١) ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، يقول الحق وهو يهدي السبيل . وأشهد أن محمداً رسول الله ، منبع الحكمة ، وفصل الخطاب ، اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين .

أما بعد ... فما أكثر ما يدور بين الناس من كلام ، ويملاً مجالسهم من حديث ، فإذا ذهبت تحصي ما قالوا وجدت أكثره اللغو الضائع ، أو الهذر الضار ، وما لهذا ركب الله الألسنة في الأفواه ، ولا بهذا تقدر الموهبة المستفادة : (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)^(٢) .

وقد غنى الإسلام عناية كبيرة بموضوع الكلام ، وأسلوب أدائه ، لأن الكلام الصادر عن إنسان ما يشير إلى حقيقة عقله وطبيعة خلقه ، ولأن طرائق الحديث في جماعة ما تحكم على مستواها العام ، ومدى تغلغل الفضيلة في بيئتها . ينبغي أن يسائل الإنسان نفسه قبل أن يحدث الآخرين : هل هناك ما يستدعي الكلام ؟ فإن وجد داعياً إليه تكلم ، وإلا فالصمت أولى به ، وإعراضه عن الكلام حيث لا ضرورة له عبادة جزيلة الأجر .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : «والذى لا إله غيره . ما على

(٢) سورة النساء : ١١٤ .

(١) سورة الرحمن : ١ - ٤ .

ظهر الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان !!^(١) .
 وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : « خمس لهم أحسن من
 الدُّهُم الموقفة^(٢) : لا تتكلم فيما لا يعنيك ، فإنه فضل ، ولا آمن عليك
 الوزر... ! ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً ، فإنه رب متكلم فى أمر
 يعنيه قد وضعه فى غير موضعه ، فَعِيبَ ! ولا تمار حليماً ولا سفيهاً ؛ فإن
 الحليم يقلبك ، وإن السفيه يؤذيك... !
 واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به ، وأعفه مما تحب
 أن يعفبك عنه !... واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان ، مأخوذ
 بالإجرام » .

والمسلم لا يستطيع هذا إلا إذا ملك لسانه ، وسيطر على زمامه بقوة ،
 فكبحه حيث يجب الصمت ، وضبطه حين يريد المقال . أما الذين تقودهم
 ألسنتهم فإنما تقودهم إلى مصارعهم... !

إن للثرثرة ضجيجاً يذهب معه الرشد ، وأكثر الذين يتصدرون المجالس
 ويتحدر منهم الكلام متتابعاً ، يجزم مستمعهم بأنهم لا يستمدون حديثهم
 من وعى يقظ ، أو فكر عميق ، وربما ظن أن هناك انفصلاً بين العقل
 وهذا الكلام المسترسل !

والمرء حين يريد أن يستجمع أفكاره ، ويراجع أعماله يجنح إلى الصمت ،
 بل إنه حين يريد أن يبصر نفسه ويرتب ذهنه ، يفر من البيئة الصاخبة
 إلى ريف صامت ، أو ضاحية ، فلا جرم أن الإسلام يوصى بالصمت ،
 ويعدّه وسيلة ناجعة من وسائل التربية الملهذبة .

فمن نصائح رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر : « عَلَيْكَ بِطُولِ الصَّمْتِ فَإِنَّهُ مَطْرَدَةٌ لِلشَّيْطَانِ ، وَعَوْنٌ لَكَ عَلَى أَمْرِ دِينِكَ »^(١) . أجل إن اللسان السائب جبل مرخى في يد الشيطان يصرف صاحبه كيف شاء ، فإذا لم يملك الإنسان أمره كان فمه مدخلا للنفايات التي تلوث قلبه ، وتضاعف فوقه حجب الغفلة .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ ، وَلَا يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ »^(٢) . وأول مراحل هذه الاستقامة ، أن ينفض يديه مما لا شأن له به . وألا يقحم نفسه فيما لا يسأل عنه : « مِنْ حُسْنِ إِيْمَانِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ »^(٣) .

والبعد عن اللغو من أركان الفلاح ، ودلائل الاكتمال ، وقد ذكره القرآن الكريم بين فريضتين من فرائض الإسلام المحكمة ، هما الصلاة والزكاة :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)^(٤) . ولو أن العالم أجمع أحصى ما يشغل فراغه من لغو في القول والعمل ، لراعه أن يجد أكثر القصص المنشورة ، والصحف المشهورة ، والخطب والإذاعات لغواً مطرداً ، تعلق به الأعين ، وثقل إليه الآذان ، ولا ترجع بطائل !

وقد كره الإسلام اللغو ، لأنه يكره التفاهات وسفاسف الأمور ، ثم هو مضیعة للعمر في غير ما خُلق الإنسان له من جد وإنتاج . وبقدر تنزه المسلم

(٢) رواه أحمد .

(١) رواه أحمد .

(٤) سورة المؤمنون : ١ - ٤ .

(٣) رواه الترمذی .

عن اللغو ، تكون درجته عند الله .

عن أنس بن مالك قال : توفي رجل ، فقال آخر - ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع : أَبَشِّرْ بِالْجَنَّةِ ، فقال رسول الله : « أَوَلَا تَذَرِي ؟ فَلَعَلَّهُ تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَغْنِيهِ ، أَوْ بَخَلَ بِمَا لَا يَنْقُصُهُ »^(١) واللاغى ، لضعف الصلة بين فكره ونطقه ، يرسل الكلام على عواهنه ، فربما قذف بكلمة سببت بواره ، ودمرت مستقبله ، وقد قيل : مَنْ كَثُرَ لَغَطُهُ كَثُرَ غَلَطُهُ ، وقال الشاعر :

يَمُوتُ الْفَتَى مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ وَلَيْسَ يَمُوتُ الْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرَّجُلِ
وفي الحديث : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقُولُ الْكَلِمَةَ ، لَا يَقُولُهَا إِلَّا لِيُضْحِكَ بِهَا الْمَجْلِسُ ، يَهْوِي بِهَا أَبْعَدَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ! وَإِنَّ الْمَرْءَ لَيَزِلُّ عَنْ لِسَانِهِ أَشَدَّ مِمَّا يَزِلُّ عَنْ قَدَمَيْهِ »^(٢) .

فإذا تكلم المرء فليقل خيراً وليعود لسانه الجميل من القول ، فإن التعبير الحسن عما يجول في النفس أدب عال ، أخذ الله به أهل الديانات جميعاً .

وقد أوضح القرآن أن القول الحسن من حقيقة الميثاق المأخوذ على بنى إسرائيل على عهد موسى : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهََ وَيَالِ الْإِلَهِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)^(٣) .

والكلام الطيب العف ، يجعل مع الأصدقاء والأعداء جميعاً ، وله ثماره الحلوة . فأما مع الأصدقاء فهو يحفظ مودتهم ، ويستديم صداقتهم ، ويمنع كيد الشيطان أن يوهي حبالهم ويفسد ذات بينهم :

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه البيهقي .

(٣) سورة البقرة : ٨٣ .

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا) (١) .

إن الشيطان متربص بالبشر ، يريد أن يوقع بينهم العدو والبغضاء ، وأن يجعل من النزاع التافه عراكًا داميًا ، ولن يسد الطريق أمامه إلا القول الجميل .

وأما حسن الكلام مع الأعداء فهو يطفى خصومتهم ، ويكسر حدتهم أو هو على الأقل يقف تطور الشر ، واستطارة شره :

(وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (٢) . وفي تعويد الناس لطف التعبير مهما اختلفت أحوالهم يقول رسول الله : «لَكُمْ لَنْ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَلْيَسْعَهُمْ مِنْكُمْ بِسَطِّ الْوَجْهِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ» (٣) . بل إنه يرى الحرمان مع الأدب أفضل من العطاء مع البذاءة : (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ) (٤) . والكلام الطيب خصلة تسلك مع ضروب البر ومظاهر الفضل ، التي ترشح صاحبها لرضوان الله ، وتكتب له النعيم المقيم .

روى عن أنس قال : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : علّمني عملاً يُدخلني الجنة قال : «أَطْعِمِ الطَّعَامَ ، وَافْئِسِ السَّلَامَ ، وَالِنْ الْكَلَامَ ، وَصَلِّ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، تَدْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ» (٥) .

وقد أمر الله عز وجل بأن يكون حجاجنا مع أصحاب الأديان الأخرى في هذا النطاق الهادي الكريم ، لا عنف فيه ولا نكر ، إلا أن يجور علينا

(٢) سورة فصلت : ٣٤ .

(٤) سورة البقرة : ٢٦٣ .

(١) سورة الإسراء : ٥٣ .

(٣) رواه البزار .

(٥) رواه البزار .

امروؤ ائيم . فيجب كبح جماحه ، ومنع اعتدائه : (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ)^(١) .

وعظماء الرجال يلتزمون في أحوالهم جميعاً ألا تبدر منهم لفظة نابية ، ويتخرجون مع صنوف الخلق أن يكونوا سفهاء أو متطاولين .

روى مالك أنه بلغه عن يحيى بن سعيد أن عيسى عليه السلام مر بخنزير على الطريق ، فقال له : انفذ بسلام ، فقبل له : تقول هذا لخنزير؟ فقال : إني أخاف أن أعود لسانی النطق بالسوء .

ومن الناس من يعيش صفيق الوجه شرس الطبع ، لا يحجزه عن المبالذ يقيين ، ولا تلزمه المكارم مروءة ، ولا يبالي أن يتعرض للآخرين بما يكرهون ، فإذا وجد مجالا يشبع فيه طبيعته النزقة الجهول ، انطلق على وجهه لا ينتهى له صياح ، ولا تنحبس له شرة .

والرجل النبيل لا ينبغي أن يشتبك في حديث مع هؤلاء ، فإن استشارة نزقهم فساد كبير ، وسد ذريعتيه واجب ، ومن ثم شرع الإسلام مداراة السفهاء .

حدث أن وقف رجل من أولئك الجهال أمام بيت الرسول يريد الدخول ، فرأى النبي أن يحاسنه حتى يصرفه ، ولم يكن من ذلك بد ، فالحلم فدام^(٢) السفية ، ولو تركه يسكب ما في طبيعته الفظة لسمع ما تنزعه عنه أذناه !!

وعن عائشة قالت : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «بئس أخو العشيرة هو» ، فلما دخل انبسط إليه وألان له القول . فلما خرج قلت : يا رسول الله حين سمعت الرجل قلت : كذا وكذا ، ثم تطلّقت في وجهه وانبسطت إليه !! فقال : «يا عائشة متى عهدتني

فَاحْشَاءُ ! إِنْ مِنْ شَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتَّقَاءَ فُحْشِهِ» (١) .

وهذا مسلك تصدقه التجارب ، فإن الرجل لا يسوغ له أن يفقد خلقه مع من لا خلق لهم ، ولو أنه شغل بتأديب كل جهول يلقاه لأعيته الحيل من كثرة ما سوف يلقى ولذلك عد القرآن الكريم في أوائل الصفات التي يتحلى بها عباد الرحمن ، هذه المداراة العاصمة :

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) (٢) .

(وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا : لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) (٣) ، وقد يكظم الإنسان غيظه مرة أو مرتين ثم ينفجر ...

بيد أن المطلوب من المسلم الفاضل ، أن يطاول الأذى أكثر من ذلك ، حتى لا يدع الشر يسيطر على الموقف آخر الأمر .

عن سعيد بن المسيب قال : «بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ وَقَعَ رَجُلٌ بِأَبِي بَكْرٍ ، فَأَذَاهُ ، فَصَمَتَ عَنْهُ أَبُو بَكْرٍ ، ثُمَّ آذَاهُ الثَّانِيَةَ فَصَمَتَ عَنْهُ ، ثُمَّ آذَاهُ الثَّالِثَةَ - فَانْتَصَرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَوْجِدْتَ عَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنْ نَزَلَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُكَذِّبُهُ بِمَا قَالَ ، فَلَمَّا انْتَصَرْتَ ، ذَهَبَ الْمَلَكُ ، وَقَعَدَ الشَّيْطَانُ ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ إِذْ قَعَدَ الشَّيْطَانُ» (٤) .

(١) رواه البخاري .

(٢) سورة الفرقان : ٦٣ .

(٣) سورة القصص : ٥٥ .

(٤) رواه أبو داود .

سلامة الصدر من الأحقاد

الحمد لله الذى لا تغيض ينابيع فضله ، ولا تضطرب موازين عدله ، له غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله . وما الله بغافل عما تعملون ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله ملهم الرشد ومرسل الخير (وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) ^(١) ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، أصفى الناس قلباً ، وأرقهم فؤاداً ، وأنداهم يداً . اللهم صل على سيدنا محمد وآله وأصحابه والتابعين .

أما بعد ؛ فإن الله تبارك اسمه ينظر إلى العباد من خلال قلوبهم ، فإذا كان المرء نقياً من الغش والضغينة بريئاً من العوج والغل ، أقبل عليه برحمته ، وضاعف نصيبه من بركته ، وكان إليه بكل خير أسرع ... أما إذا كان محصوراً في مطامعه ، ضائقاً بخير الله عند خلقه ، فهيهات أن يصح له عمل ، أو ينجح له أمل .

المسلم حقاً إنسان تمتد مشاعر حبه ، فتغمر ما حوله ، وتفيض على الآخرين سلاماً وأماناً . والجماعة المسلمة حقاً هى التى تقوم على عواطف الحب المشترك ، والود الشائع ، والتعاون المتبادل ، والمجاملة الرقيقة ، لا مكان فيها للفردية المتسلطة الكنود ، بل هى كما وصف القرآن : (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا . رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) ^(٢) .

إن الخصومة إذا نمت وغارت جذورها وتفرعت أشواكها ، شلت زهرات

(٢) سورة الحشر : ١٠ .

(١) سورة الحجر : ٢١ .

الإيمان الغض ، وأذوت ما يوحى به من حنان وسلام .

وعندئذ لا يكون في أداء العبادات المفروضة خير ، ولا تستفيد النفس منها عصمة . وكثيراً ما تطيش الخصومة بألباب ذويها فتتدلى بهم إلى اقتراف الصغائر المسقطة للمروءة ، والكبائر الموجبة للعنة ، وعين السخط تنظر من زاوية داكنة فهي تعمى عن الفضائل ، وتضخم الرذائل . وقد يذهب بها الحقد إلى التخيل وافتراض الأكاذيب ، وذلك كله مما يسخطه الإسلام ويحاذر وقوعه ، ويرى منعه أفضل القربات .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ قَالُوا : بَلَى . قَالَ : إِضْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ . فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هُوَ الْحَالِقَةُ ، لَا أَقُولُ تَخْلُقُ الشَّعْرَ ، وَلَكِنْ تَخْلُقُ الدِّينَ » (١) .

ربما عجز الشيطان أن يجعل من الرجل العاقل عابد صنم ، ولكنه - وهو الحريص على إغواء الإنسان وإيراده المهالك - لن يعجز عن المباعدة بينه وبين ربه ، حتى يجهل حقوقه أشد مما يجهلها الوثني المخرف ، وهو يحتال لذلك بإيقاد نيران العداوة في القلوب ، فإذا اشتعلت استمتع الشيطان برويتها وهي تحرق حاضر الناس ومستقبلهم ، وتلتهم علائقهم وفضائلهم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَتَسَّسُ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَسَّسْ مِنَ التَّخْرِيشِ بَيْنَهُمْ » (٢) .

ذلك أن الشر إذا تمكن من الأفئدة فتنافر ودّها ، وانكسرت زجاجتها ،

ارتد الناس إلى حال من القسوة والعناد ، يقطعون فيها ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض .

وقد تيقظ. الإسلام لبوارد الجفاء ، فلاحقها بالعلاج . قبل أن تستفحل وتستحيل إلى عداوة فاجرة . والمعروف أن البشر متفاوتون في أمزجتهم وأفهامهم ، وأن التقاءهم في ميادين الحياة قد يتولد عنه ضيق انحراف ، إن لم يكن صدام وتباعد ، ولذلك شرع الإسلام من المبادئ ما يرد عن المسلمين عوادي الانقسام ، والفتنة ، وما يمسك قلوبهم على مشاعر الولاء والمودة ، فنهى عن التقاطع والتدابير .

نعم قد يحدث أن تشعر بإساءة موجهة إليك . فتحزن لها ، وتضيق بها ، وتعزم على قطع صاحبها . ولكن الله لا يرضى أن تنتهي الصلة بين مسلم ومسلم إلى هذا المصير .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا تَقَاطَعُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ » (١) .

وفي رواية : « لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَهْجُرَ مُؤْمِنًا فَوْقَ ثَلَاثٍ ، فَإِنْ مَرَّتْ بِهِ ثَلَاثٌ فَلْيَلْقَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ . فَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ فَقَدْ اشْتَرَكَا فِي الْأَجْرِ وَإِنْ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ بَاءَ بِالْإِثْمِ ، وَخَرَجَ الْمُسْلِمُ مِنَ الْهَجْرَةِ » (٢) . وهذا التوقيت فترة تهدأ فيها الحدة وينفث الغضب . ثم يكون لزماً على المسلم بعده أن يواصل لإخوانه ، وأن يعود معهم سيرته الأولى ، كأن القطيعة غيمة ، ما إن تجمعت حتى هبت عليها الريح فبددتها ، وصفا الأفق بعد عبوس .

والإنسان في كل نزاع ينشب أحد رجلين : إما أن يكون ظالماً ، وإما

أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا ، فَإِنْ كَانَ عَادِيًّا عَلَى غَيْرِهِ . نَاقِصًا لِحَقِّهِ ، فَيَنْغِي أَنْ يَقْلَعَ عَنْ غِيهِ وَأَنْ يَصْلَحَ سِيرَتَهُ ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَنْ يَسْتَلِ الضَّغْنَ مِنْ قَلْبِ خَصْمِهِ إِلَّا إِذَا عَادَ عَلَيْهِ بِمَا يَطْمَئِنُّهُ وَيَرْضِيهِ ، وَقَدْ أَمَرَ الْإِسْلَامُ الْمَرْءَ - وَالْحَالَةَ هَذِهِ - أَنْ يَسْتَصْلِحَ صَاحِبَهُ ، وَيَطْلُبَ خَاطِرَهُ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرِضٍ أَوْ مِنْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدَرٍ مَظْلَمَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ » (١) .

ذلك نصيح الإسلام لِمَنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ . أَمَا مَنْ لَهُ الْحَقُّ فَقَدْ رَغِبَ إِلَيْهِ أَنْ يَلِينَ وَيَسْمَحَ ، وَأَنْ يَمْسَحَ أَخْطَاءَ الْأَمْسِ بِقَبُولِ الْمَعْذَرَةِ ، عِنْدَ مَا يَجِيءُ لَهُ أَخُوهُ مُعْتَذِرًا وَمُسْتَغْفِرًا ، وَرَفُضِ الْاعْتِذَارِ خَطَأً كَبِيرًا .

وفي الحديث : « مَنْ اعْتَذَرَ إِلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلَ خَطِيئَةِ صَاحِبِ مَكِّيْسٍ » (٢) . وفي رواية : « مَنْ تَنَصَّلَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَقْبَلْ لَمْ يَرِدْ عَلَى الْخَوْصِ » (٣) .

وبهذا الإرشاد المبين للطرفين جميعاً يحارب الإسلام الأحقاد ، ويقتل جرثومتها في المهد ، ويرتقي بالمجتمع المؤمن إلى مستوى رفيع ، من الصداقات المتبادلة ، أو المعاملات العادلة .

وقد اعتبر الإسلام من دلائل الصغار وخسة الطبيعة أن يرسب الغل في أعماق النفس ، فلا يخرج منها ، بل يظل يموج في جوانبها كما يموج البركان المكتوم .

وكثير من أولئك الذين يحتبس الغل في أقفئهم ، يتلمسون متنفساً

(٢) رواه ابن ماجه .

(١) رواه البخارى .

(٣) رواه الطبرانى .

له في وجوه من يقع معهم ، فلا يستريحون إلا إذا أرغوا وأزبدوا ، وآذوا وأفسدوا .

روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أَلَا أُنبِئُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ؟ قالوا : بلى ، إِنَّ شِئْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قال : إِنَّ شِرَارِكُمْ الَّذِي يَنْزِلُ وَحْدَهُ ، وَيَجْلِدُ عَبْدَهُ ، وَيَمْنَعُ رِفْدَهُ ، أَفَلَا أُنبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ ؟ قالوا : بلى ، إِنَّ شِئْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قال : مَنْ يُبْغِضُ النَّاسَ وَيُبْغِضُونَهُ . قال : أَفَلَا أُنبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ ؟ قالوا : بلى ، إِنَّ شِئْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ... قال : الَّذِينَ لَا يُقْبِلُونَ عِثْرَهُ ، وَلَا يَقْبَلُونَ مَعْدِرَةً ، وَلَا يَغْفِرُونَ ذَنْباً . قال : أَفَلَا أُنبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ ؟ قالوا : بلى ، يَا رَسُولَ اللَّهِ . قال : مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ » (١) .

والأصناف التي أحصاها هذا الحديث ، أمثلة لأطوار الحقد عندما تتضاعف علته ، وتفتضح سوائته . ولا غرو ، فمن قديم أحس الناس ، حتى في جاهليتهم ، أن الحقد صفة الطبقات الدنيا من الخلق ! وأن ذوى المروءات يتنزهون عنه ! قال عنترة :

لَا يَحْمِلُ الْحَقْدَ مَنْ تَعَلَّوْا بِهِ الرُّتْبَ وَلَا يَنَالُ الْعِلَاءَ مَنْ طَبَعَهُ الْغَضَبُ
وسلامة الصدر فضيلة تجعل المسلم لا يربط بين حظه من الحياة ومشاعره مع الناس ، ذلك أنه ربما أخفق حيث نجح غيره ، وربما تخلف حيث سبق آخرون .

فمن الغباء أو من الوضاعة أن تلتوى الأثرة بالمرء ، فتجعله يتمنى الخسار لكل إنسان ، لا لشيء إلا لأنه هو لم يربح !!
ثم إن المسلم يجب أن يكون أوسع فكرة ، وأكرم عاطفة ، فينظر إلى

الأُمُور من خلال المصلحة العامة لا من خلال شهواته الخاصة .

وجمهور الحاقدين ، تغلى مراحل الحقد فى أنفسهم لأنهم ينظرون إلى الدنيا فيجدون ما يتمنونه لأنفسهم قد فاتهم ، وامتلأت به أكفٌ أخرى .

وهذه هى الطامة التى لا تدع لهم قراراً !!

وقديماً رأى إبليس أن الحظوة التى يتشهاها قد ذهبت إلى آدم ، فآلى ألا يترك أحداً من بنيهِ يستمتع بها بعدما حرّمها :
(قَالَ : فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لَا يَنبَغِي لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) (١) .

هذا الغليان الشيطاني هو الذى يضطرم فى نفوس الحاقدين ، ويفسد قلوبهم ، وقد أهاب الإسلام بالناس أن يبتعدوا عن هذا المنكر ، وأن يسلكوا الحياة نهجاً أرقى وأهدأ .

عن أنس بن مالك قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يَطْلُعُ الْآنَ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، تَنْطَفِ لِحِيته مِنْ وَضُوئِهِ . قَدْ عَلِقَ نَعْلِيهِ بِيَدِهِ الشَّمَالِ ... فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ النَّبِيُّ مِثْلَ ذَلِكَ - فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الثَّالِثُ قَالَ النَّبِيُّ مِثْلَ مَقَالَتِهِ أَيْضًا : فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى .

فلما قام النبي ، تبعه عبد الله بن عمرو - تبع الرجل - فقال : لَأُنْبِئَكَ لَأَحْيَتِ أَبَى ، فَأَقْسَمْتُ أَلَا أَدْخُلُ عَلَيْهِ ثَلَاثًا : فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ

حتى تمضي فعلت ! قال : نعم .

قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تعارَّ - تقلب في فراشه - ذكر الله عز وجل حتى ينهض لصلاة الفجر ، قال عبد الله : غير أني لم أسمعہ يقول إلا خيراً .

فلما مضت الليالي الثلاث ، وكدت أحترق عمله . قلت يا عبد الله : لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة . ولكني سمعت رسول الله يقول - ثلاث مرات - يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فطلعت أنت الثلاث المرات ، فأردت أن آوي إليك ، فانظر ما عملك فأقتدي بك ، فلم أرك عملت كبير عمل !! فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ؟ قال : ما هو إلا ما رأيته . قال عبد الله : فلما وليت دعائي فقال : ما هو إلا ما رأيته ، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . فقال عبد الله : هذه التي بلغت بك !! ^(١) .

وفي رواية : « ما هو إلا ما رأيته يا ابن أخي ، إلا أني لم أبت ضاغناً على مسلم » ^(٢) .

وقد حرم الإسلام الحسد ، وأمر الله رسوله أن يستعيذ من شرور الحاسدين لأن الحسد جمرة تتقد في الصدر ، فتؤذي صاحبها ، وتؤذي الناس به .

والإنسان الذي يتمنى زوال النعم آفة تحذر غوائلها على المجتمع ، ولا يطمأن إلى ضميره في عمل . وقد قال رسول الله : « لا يَجْتَمِعُ في جَوْفِ عَبْدٍ غِبَارٌ في سَبِيلِ اللَّهِ وَقُبْحُ جَهَنَّمَ . ولا يَجْتَمِعُ في جَوْفِ عَبْدٍ الْإِيمَانُ »

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه البزار .

والْحَسَدُ»^(١).

وقال : «إياكم والحَسَدَ ؛ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»^(٢).

والرجل الذى يكره المنعم عليهم ، وَيَوَدُّ لو يُمْسُونَ محرومين ، ويصبحون ضائعين - رجل ضلته عن حقيقة الحياة ظلمات شتى .

إنه أولاً محصور بالدنيا ومتاعها ، يقاتل عليه ، ويبكى وولاءه ، ويتبع بالغيظ من نالوا نصيباً ضخماً منه .

وهذا خطأ فى تقدير الحياتين ، بل لعله جهل أو ذهول عن الحياة الأخرى وما ينبغى لها من استعداد ، يجب أن يتأهب المرء له ، ويأسى لفواته .

قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ؛ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ، هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)^(٣).

(٢) رواه أبو داود .

(١) رواه البيهقي .

(٣) سورة يونس : ٥٧ و ٥٨ .

قوة الشخصية

الحمد لله العلى الكبير ، اللطيف الخبير ، أحمدته وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ويستنقذنا من الضلال ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، دعانا إلى الإيمان ، حرصاً علينا ، وندبنا إلى اتخاذ أسباب القوة ، والاعتصام بحبل الله ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، الذين آمنوا به ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون .

أما بعد ؛ فيقول الله سبحانه فى كتابه الكريم فى صفة المشركين :
(وَلَمَّا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (١).

أيها المسلمون : هذا حديث القرآن عن صنف من الناس تجردوا من العقل وساروا فى الأرض على غيرى هدى ، إذا دعوا إلى الحق رفضوه ، وأعرضوا عن الرسول ، وقالوا : (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) (٢).

إن أبسط ما فى موقف هؤلاء أنهم رفضوا أن يستعملوا عقولهم ، وآثروا أن يسيروا فى طريق الضلال والجهل والاسترخاء ، على أن يتحركوا ويفكروا ، ويحددوا بأنفسهم طريقهم ، ومعنى ذلك أنهم فقدوا الإيمان بالله أولاً ، وفقدوا معه قدرتهم على استخدام ما وهبهم الله من القوى ، أى أنهم فى

(١) سورة البقرة : ١٧٠ .

(٢) سورة الزخرف : ٢٣ .

النهاية مجرد حيوانات تتحرك وتدب على الأرض ، معطلة المواهب ، تائهة في طريق التقليد ، لا كيان لها ، ولا شخصية ، ولا إحساس بقيمة الحياة . هذا الصنف من الناس هم الذين حذر النبي صلى الله عليه وسلم كل مؤمن أن يكون منهم حين قال : « أُغْدُ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا وَلَا تَكُنْ إِمْعَةً »^(١) .

أى عديم الرأى ، وهم الذين عناهم الله سبحانه في قوله : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)^(٢) .

إن دينكم أيها المسلمون يكره لكم أن تكونوا من هذا الصنف الذى فقد شخصيته ، ويريد لكل فرد منكم كياناً قائماً بذاته ، لا يقنع إلا بما يفهمه عقله ، ولا يرى إلا بعينه ، ولا يسمع إلا بأذنيه ، ولا يسير إلا بإرادته ، ولا يخضع لمخلوق ضعيف مثله ، مهما يكن شأنه .

والواقع أن نقطة البداية في تكوين المؤمن هى إيمانه بالله ، فبهذا الإيمان تتكون مجموعة من العناصر التى تدعم شخصيته ، وتجعله ذا سلوك متميز عن الآخرين من غير المؤمنين .

فمن ذلك مثلاً أن نجد الناس يتفقون على أن قرابة الرحم والدم من الأسباب التى تربط بين الفرد والفرد برابط لا ينقسم ، وهى تفرض نوعاً من البر والتراحم بينهما ، مهما كانت الظروف ، ويأتى منطق الإيمان لينشئ للمؤمن قرابة أخرى ، هى الشعور العميق بالأخوة الروحية ، التى يترتب عليها أعظم قدر من البر والرحمة بين المؤمنين ، كما ينتج عنها

(١) حديث رواه ابن الأثير فى النهاية فى غريب الحديث والأثر عن عبد الله بن مسعود .

(٢) سورة الأعراف : ١٧٩

نوع من الشدة في معاملة الكافرين :

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) ^(١).

هذه الشدة في معاملة الكفار لا يستثنى منها قريب أو نسيب ، فالكافرون بعضهم من بعض ، وإن تباعدت أنسابهم ، (وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) : (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ، أَوْ إِخْوَانَهُمْ ، أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) ^(٢).

فالمؤمن يرى عن اقتناع أنه ليس في الدنيا ما يعدل الإيمان ، وليس لأحد سلطان عليه إلا الله وحده . وقد أُنذِر الله سبحانه بعض المؤمنين ممن تشغلهم القربيات ، أو تلهيهم التجارات والمنافع ، حتى نسوا الله فأنساهم أنفسهم - أُنذِرهم بالعواقب الوخيمة ، ووصفهم بالفسق والخروج عن سنن المؤمنين فقال : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ ، وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) ^(٣).

إن الذى تلهيه هذه الأمور عن سبيل الله لإنسان ضعيف الشخصية ، ضائع الهدف ، وجدير بمثله ألا يكون في زمرة المؤمنين .

فهذا موقف اقتضاه الإيمان ، وصنع به من المؤمن نموذجاً جديداً ، له موقفه المتميز ، وله تصرفه المستقل ، وله سلوكه الذى يعتز بالله الخالق ، لا بالمخلوقات .

وعودة أيها المسلمون إلى مسلك النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه ، في

(٢) سورة المجادلة آخر السورة .

(١) سورة الفتح : ٢٩

(٣) سورة التوبة : ٢٤ .

المرحلة الأولى من عمر الدعوة ، وقبل أن يشرع الله الجهاد للدفاع عن النفس بقوله : (أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِيَأْنَهُمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)^(١). في هذه المرحلة الأولى كان النبي مأموراً بأن يدعو قومه إلى الله ، وأن يصبر على أذاهم : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)^(٢). لقد ذكرت كتب السيرة الكثير من أحداث هذا الصبر الجميل على سفاهة قومه ، فمنهم من كان يضع الأذى والقاذورات على بابيه ، ومنهم من كان يقذفه بهذه القاذورات ، ويلقيها على رأسه في الصلاة ، ومنهم من كان يرميه بالحجارة ، ومع كل ما تفنن به المشركون لتعذيبه بالضرب تارة ، وبالتجويع تارات ، فإن صبره لم ينفد ، بل ازداد إصراراً على الدعوة ، ومصابرة لعلاج المتمردين ، وكان من ماثور دعائه ساعة الشدة والبلاء : « إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَىٰ فَلَا أَبَالِي ، لَكِنْ عَافَيْتَكَ أَوْسَعُ لِي . أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ يَحُلَّ بِي غَضَبُكَ ، أَوْ يَنْزَلَ عَلَىٰ سَخَطِكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ »^(٣).

فهل كان هذا الصبر الجميل ، وهذا الحلم المعجز ضعفاً في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كان جبروت المشركين وعنادهم من عناصر قوة شخصيتهم ؟ ... كلا ... كلا .

لقد كان بلال رضي الله عنه في ساحة العذاب ، وهو يردد في إصرار :

أحد ... أحد ... أقوى ألف مرة من العذاب ، ومن الجلادين ، ولا شك

(٢) سورة الأحقاف : ٣٥ .

(١) سورة الحج : ٣٩ .

(٣) من دعاء مروى عنه صلى الله عليه وسلم عندما ذهب يدعو ثقيفاً إلى الإسلام فأغروا به

عبيدهم وسفهاءهم يرمونه بالحجارة ، حتى دميت قدماء .

أَن الذي أَقْدَرُهُ على هذا التحمل العجيب إنما هو إيمانه بالله ، الذي أَمَدَّهُ بقوة تقهر ضعف الإنسان في نفسه .

فمنذ أصبح بلال مؤمناً لم يعد العبد اللئيل الخاضع ، ولم يعد الإنسان الجبان الخائر ، وإنما أصبح المؤمن المعتز بالله : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) .

ومن ثم يصبح من الضروري أَن نفسر جبروت المشركين في مواجهة الدعوة بأنّه لم يكن إلا ذعراً من الدعوة الجديدة ، وخوفاً من القوة المؤمنة ، لقد كانوا ضعافاً وهم يحملون السياط . ، بقدر ما كان المؤمنون أقوياء على تحمل لهيبها ، ومقاومة آلامها .

فقوة الشخصية هنا كامنة في النفس لا في السوط ، وشجاعة المواجهة في قلوب المؤمنين أعظم من رعونة أعدائهم وتخبّطهم في استعمال العنف معهم . والعبرة كما يقال بالخواتيم .

أيها المسلمون : إن الإيمان في حقيقته إعلان للحق في وجه الضلالات المنتشرة ، كما أنه موقف صريح إزاء مواقف النفاق المستترة ، ولذلك وجدنا الآية الكريمة تضع الإيمان في وجه النفاق ، للإيمان العزة ، وللمنافقين الذلة : (يَقُولُونَ لَسْنَا بِمَدِينَةٍ لَّيْخُرِجُنَّ الْأَعْزُ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)^(١) .

وقد استحق المؤمنون العزة لأنهم برئوا من صفات المداينة ، والخداع ، والكذب ، والتآمر ، وهى كلها - برغم خطورتها - عوامل ضعف في شخصيات المنافقين ، لقد وصفهم الله بأبلغ وصف حين صور ضعفهم وجبنهم عن مواجهة الحق بالوضوح وبالصراحة فقال سبحانه : (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا

يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ^(١) ؛ فهذا الاستخفاء أكبر دليل على انحلال شخصية المنافق ، الذى ينتهى به إلى الهزيمة ، وإلى الإخفاق ، مهما بدا لأعين الناس أحياناً أنه قد حقق نصراً ، أو أحرز مغزماً .

ولقد يحدث أحياناً أن تنتشر في المجتمع بعض القيم المضللة ، وذلك في عصور الانحطاط ، وعهود الظلام ، فيكذب الناس باسم المصلحة ، وينافقون باسم السياسة ، ويسرقون باسم المهارة ، ويفرطون في أعراضهم باسم المدنية ، ويتنازلون عن كرامتهم باسم الدبلوماسية ، وينسبون كل هذه الرذائل إلى قوة الشخصية ، ومع ذلك فإن نهاية الشر لا يمكن أن تكون خيراً ، يذهب الكذابون والمنافقون ، واللصوص والقوادون ، وتبقى من بعدهم جيفهم الأخلاقية ، درساً للأجيال من بعدهم ، ودليلاً على أن الظلام لا يلد النور ، وأن الانحلال لا يمكن أن يؤدي إلى تماسك الفرد أو الجماعة .

أيها المسلمون : لقد كانت دعوة الدين إلى الفضائل في جوهرها دعوة إلى قوة الشخصية ، ومن مجموع الشخصيات القوية تتكون الأمة القوية الناهضة ، التي يعرف فيها الفرد قدر نفسه ، ويذكر فيها دائماً واجبه ، قبل أن يطالب بحقه ، وليس من المستساغ ولا الجائز في شرعة الإيمان أن يحترف أناس دعوة الناس إلى الواجب ، على حين يحصلون على المغنم دون أن يدفعوا ضريبة ما غنموا ، إن مثل هذا المسلك يجردهم في نظر الدين ، لا من الفضيلة فحسب ، ولا من قوة الشخصية فحسب ، بل يجردهم من العقل أيضاً ، مهما تظاهروا به بين الناس ، واستمعوا إلى قوله تعالى :

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ، وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)^(٢) ؛ فقوة الشخصية تدعوك أن تبدأ قبل دعوة الناس إلى البر

وإلى الواجب بدعوة نفسك ، لتكون قدوة لهم ، فإذا نسيت نفسك لم يكن لذلك من تفسير إلا أن عقلك قد اختبل ، فأصبحت تصدر كلاماً لا معنى له عندك ، ولا ترجمة له في سلوكك ، وهذا الانفصال بين قولك وعملك أكبر مظاهر ضعف شخصيتك ، وهو ما حاول الدين بشتى الوسائل أن يعين المؤمن على تلافيه وتجنبه ، حين دعاه أن يقول ما يفعل : (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) ^(١) .

فتركيز الدين دائماً على تنمية الشخصية المؤمنة ، ودعمها بجميع الفضائل ، بحيث لا تنقصها فضيلة فتسند القوة الحق ، وترعى الحكمة الشجاعة ، ويسدد الصدق السياسة ، ويحكم الضمير مواقف الرجال .

فاتقوا الله أيها المسلمون ، وتمسكوا بدينكم ، الذى دعاكم لما يحييكم ، دعاكم إلى أن تحرصوا على تقوية أبدانكم « فَاَلْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ » ^(٢) ، ولكنه أخضع قوة البدن لقوة النفس .

بل اعتبر قوة النفس دليل القوة الحقيقية ، فلكل قوة مجالها ، وهى حين تستخدم فيه تودى إلى خير النتائج ، كما تدل على حكمة صاحبها ، والمهم أن تكونوا فى كل مواقفكم ذاكرين لله ، ولآياته التى خاطبكم بها فى محكم كتابه : (وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) ^(٣) .

(٢) رواه مسلم .

(١) سورة الصف : ٣ .

(٣) سورة فصلت : ٣٤ ، ٣٥ .

واذكروا مع هذا قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه :
 « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ (الذى يصرع الناس بقوته) ، وَإِنَّمَا الشَّدِيدُ
 الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » .

وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود : « لَا يَكُونَنَّ أَحَدُكُمْ لِمَعَةٍ ،
 يَقُولُ : إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنْتُ ، وَإِنْ أَسَاءُوا أَسَأْتُ ، وَلَكِنْ وَطَّنُوا
 أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا ، وَإِنْ أَسَاءُوا أَنْ تَجَنَّبُوا إِسَاءَاتِهِمْ » ^(١) .

الحلم والصفح

الحمد لله حشنا على مكارم الأخلاق ، ووجهنا إلى أن نعامل الناس بالحلم ، وأن تكون علاقتنا بهم علاقة رحمة ومحبة ومودة ، وأمرنا بأن نمثل قوله تعالى : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)^(١).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وضع لعباده من النظم ما يكفل لهم عز الدنيا وسعادة الآخرة ، حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاء بالإسلام مسلماً للأصدقاء ، وشدة على الأعداء (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ...)^(٢).

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، الذين اتخذوا من سيرة رسولهم الكريم أسوة حسنة ، كما قال لهم المولى تبارك وتعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)^(٣) ...

أما بعد ؛ فليأياها المسلمون ...

إن الناس في حياتهم يتفاوتون في مشاربهم ، ويختلفون في منازعهم ، وهم على أصناف ثلاثة : صنف يقل منه فعل الخير ، وكثيراً ما يصدر عنه الشر ، وإذا ما حاول إنسان أن يدفعه إلى ما هو خير ، وإلى اجتناب

(٢) سورة الفتح : ٢٩ .

(١) سورة الأعراف : ١٩٩ .

(٣) سورة الأحزاب : ٢١ .

ما هو قبيح ، ، أعرض ونأى بجانبه ، وربما قابل هذا النصح الهادئ بالصد والإيذاء ، هذا الصنف شعاره في الحياة : خذ ولا تعط ، وأبدل الناس بالإيذاء حتى تكون غالباً دائماً ...

وصنف ثان يفعلون الخير ، ولكنهم ينتظرون الجزاء العاجل ، وإذا كان لهم حق عند غيرهم أصروا على أن يأخذوه كاملاً ، ولا يتهاونون في اقتضائه ، إنهم لا يبذلون أحداً بظلم أو عدوان ، ولكنهم إن ظلموا انتقموا ممن ظلمهم ، وحرّموا من حرّهم ، وردوا الأذى عن أنفسهم بكل ما يستطيعون من وسائل ، إن شعارهم في الحياة : الشر بالشر والبادي أظلم ، أو كما قال القائل :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا !!

وهناك صنف ثالث من الناس ، يتجاوزون العدل إلى الفضل ، لا يظلمون أحداً ، بل يعفون عمن ظلمهم ، ولا يبغضون أحداً حقه ، بل يسمحون له ببعض حقوقهم ، إن نالهم أذى من غيرهم لم يقابلوه بأذى مثله ، بل أعرضوا عمن قدم الأذى ، تक्रماً منهم ، مع قدرتهم على أن ينتقموا لأنفسهم ، إن هذا الصنف من البشر كريم النفس ، طيب الخلق على المروءة ، يبيت في مجتمعه ظلالاً رفيعة من النور والخير والمعروف ، ويكون جديراً بتكريم الله له حيث مدح من يغفر عند غضبه بقوله : (وَإِذَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) (١) !

والإسلام يجعل الأصل في الجزاء مقابلة السيئة بمثلها ، كي لا يتبجح الشر ويظفي ، حين لا يجد رادعاً يكفه عن الإفساد في الأرض : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) (٢) ، لكنه يجعل العفو دليلاً على صلاح النفس من الغيظ ، وإصلاح الجماعة من الأحقاد : (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ

إِنَّهُ لَا يُجِبُّ الظَّالِمِينَ^(١) . ويؤكد القرآن الكريم أن الذي ينتصر بعد ظلمه ، ويجزى السيئة بالسيئة ، ولا يعتدى ، ليس عليه جناح وهو يزاول حقه المشروع بدون مجاوزة للحد ، ومن غير بغى ولا ظلم : (وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(٢) . ومع ذلك كله فالصبر والسباحة استعلاءً على غضب النفس ، وهو من الأمور التي لا يقدر عليها إلا أولو الفضل من الناس : (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)^(٣) .

يا عباد الله ... إن صفة الحلم من الصفات التي يمدح الله بها المرسلين لما لها من أثر واضح في تمكين دعوتهم ، فقد وصف الله بها إبراهيم عليه السلام بقوله : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)^(٤) . وقال في ولده : (فَبَشِّرْنَاهُ بِعِلَامٍ حَلِيمٍ)^(٥) . وذكر عن يوسف عليه السلام تخلقه بخلق العفو عند القدرة على الانتقام حينما وقف إخوته الذين تآمروا عليه في صباه وألقوه في غيابة الجب ، لكنه بعد أن قدر عليهم خاطبهم بقوله : (لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)^(٦) .

ورسولنا صلى الله عليه وسلم ألّف حول دعوته القلوب ، وجعل أصحابه يقدونها بأرواحهم ، وبأعز ما يملكون ، بخلقهم الكريم ، وبحلمه وعفوه ، وكثيراً ما كان يُستغضب غير أنه ما يجاوز حدود التكرم والإغضاء ، لم ينتقم لنفسه قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها ، ولما استشهد عمه

(٢) سورة الشورى : ٤١ و ٤٢ .

(٤) سورة هود : ٧٥ .

(٦) سورة يوسف : ٩٢ .

(١) سورة الشورى : ٤٠ .

(٣) سورة الشورى : ٤٣ .

(٥) سورة الصافات : ١٠١ .

حمزة رضى الله عنه ، بيد وحشى ، وحمزة من أحب الناس إلى رسول الله . وكان مستبسلًا في الدفاع عن دعوة الإسلام ، غضب الرسول على وحشى القتال ، وأقسم ليقتلن بحمزة سبعين من المشركين ، فنزل قوله تعالى : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ)^(١) . وتمضى الأيام ويدخل وحشى هذا في دين الإسلام ، ويذهب مع الجيش الإسلامى الذى توجه لردع مسيلمة الكذاب ومن معه ، وقتل بيده مسيلمة ، وقال فى ذلك : لقد قتلت خير الناس ، وقتلت شر الناس !!

وفتح رسول الله مكة ، ودخلها نهاراً بعد أن أخرج منها ليلاً ، وحطم الأصنام بيده ، ووقف أهل مكة أمامه يرقبون العقاب الذى سينزله بهم رسول الله ، جزاء ما قدموه له من إيذاء لا يتحملة إلا أهل العزمات القوية ، إلا أنه قال لهم : ما تَظُنُّونَ أَنِّى فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ قالوا : خَيْرًا ، أَخُ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ .

وقد عبر عن هذا الموقف الإنسانى الرائع الإمام البوصيرى فقال فى همزيته :

وإذا كان القطع والوصل لله تساوى التقريب والإقصاء

ولو أن انتقامه لهوى النفس من لدامت قطيعة وجفاء

فعله كله جميل وهل يند ضح إلا بما حواه الإناء

وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيض إشراقاً بمواقف العفو والحلم . تعدّ نماذج لمن ينشد معالى الأمور ، ومعالم لمن يطلب حياة الشرف والمروءة ، قال له أعرابى يوماً من الأيام وهو يقسم الغنائم : اعدل ، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فلم يزد فى جوابه أن بيّن له ما جهله ، ووعظ نفسه

وذكرها بما قال له . ثم قال له : « وَنَحَكَ فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ ؟ ! خَبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ » . ونهى أصحابه أَنْ يَقلّـتـوه ، حين همّ بعضهم بذلك .

إن الرسول الكريم لم تأخذه الدهشة من قول الأعرابي ، لأنه يعرف أن في طبيعة الناس صنفاً منهم مرد على الجفوة في التعبير والإسراع بالشر ، وأمثال هؤلاء لو عوجلوا بالعقوبة لقضت عليهم ، ولما كانت ظلماً ، لكن المصلحين العظماء يربون أنفسهم على الطهر والسموّ ويبنون المجتمعات على الأخلاق الفاضلة والصفات النبيلة ، فيفيضون من أنانيتهم على ذوى النزق ، حتى يلجئهم إلى الخير إلجاء ، ويطلقوا ألسنتهم تلهج بالثناء ، وليس الإنسان القوى هو الذى أوتى حظاً من قوة فى يديه ، أو سلامة فى جسده ، بل الإنسان القوى حقاً هو الذى ينظر إلى هفوات الناس على أنها فورة عارضة ، فيتغاضى عنها ، وقد أرشدنا إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « ما تعدون الصّـرعة فيكم ؟ قالوا : الذى لا تَصْرَعُهُ الرّجـالُ ، قال : لا ، ولكن الذى يملك نفسه عِنْدَ الغَضَبِ » (١) .

وجاء رجل إلى الرسول وقال له : أوصنى ولا تكثر على لعلّى لا أنسى ، قال : « لا تَغْضَبْ » (٢) . ووفد أعرابي على رسول الله يريد أن يتعلم الإسلام ، ولم تكن له معرفة سابقة بالنبي ، ولا بما يدعو إليه ، قال الأعرابي : واسمه جابر بن سليم : رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه ، لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه ، قلت : من هذا ؟ قالوا : رسول الله ، قلت : عليك السلام يا رسول الله ، قال : لا تقل عليك السلام — « عليك السلام » تحية الميت ، قل السلام عليك !! قال : قلت : أنت رسول الله ؟ قال : « أنا رسول الله الذى إذا أَصَابَكَ ضَرْفٌ فدَعَوْتَهُ كُشِفَ عَنْكَ ، وَإِنْ أَصَابَكَ عَامٌ

سَنَةً فَدَعَوْتَهُ أَنْبَتَهَا لَكَ ، وَإِذَا كُنْتَ بِأَرْضِ قَفَرٍ فَضَلَّتْ رَاحِلَتُكَ فَدَعَوْتَهُ رَدَّهَا عَلَيْكَ . . قال : قلت : اعهد إلي ، قال : لا تَسْبِنَ أَحَدًا - فَمَا سَبَبْتُ بَعْدَهُ حُرًّا وَلَا عَبْدًا وَلَا بَعِيرًا وَلَا شَاةً ، قال : وَلَا تُحَقِّرَنَّ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ . . ثُمَّ قَالَ : وَإِنْ أَمَرُوكَ شَتَمَكَ وَعَيَّرَكَ بِمَا يَعْلَمُ مِنْكَ فَلَا تُعَيِّرْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ ، فَإِنَّمَا وَبَّالُ ذَلِكَ عَلَيْهِ « (١) .

وتتوالى توجيهات الرسول لتأكيد هذا الخلق ، فيروى عن عبادة بن الصامت ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أُنبِئُكُمْ بِمَا يُشْرَفُ اللَّهُ بِهِ الْبَنِيَانُ وَيَرْفَعُ الدَّرَجَاتُ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قال : تَحْلُمُ عَلَى مَنْ جَهَلَ عَلَيْكَ ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ . وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ » (٢) . وعدَّ القرآن الكريم هذه السمائل الرفيعة طريق الفلاح التي تأخذ بيد صاحبها إلى الفردوس الأعلى ، وإلى النعيم المقيم ، قال تعالى : (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (٣) . وقد شهدت الأمة العربية نماذج عالية ممن تخلقوا بصفة الحلم ، حتى اشتهروا بهذه الصفة ، ومن هؤلاء : أحنف الذي ضرب به المثل في ذلك ف قيل : فلان في حلم أحنف . لقد كان كثير العفو والحلم وكان يقول : ما آذاني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث : إن كان فوق عرفت له فضله ، وإن كان مثلي تفضلت عليه ، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه . . .

وعربي آخر يبحث على هذا الخلق فيقول من شعر له :

(٢) رواه الطبراني .

(١) رواه أبو داود .

(٣) سورة آل عمران : ١٣٣ و ١٣٤ .

وما قتلَ الأحرارَ كالغزو عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
 إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
 فوضع الندى في موضع السيف بالعلا مفركوضع السيف في موضع الندى
 وفعل الخير لا يضيع عند الله ، ولا يضيع عند الناس الذين يعرفون
 الفضل لذويه ، وتأسرهم الكلمة الطيبة ، والغفو الكريم :
 من يفعل الخير لا يعلم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس !!
 يا عباد الله ؛ والإنسان منا في حياته ، يلاقى كثيراً مما يؤلمه ، ويسمع
 كثيراً مما يؤذيه ، ولو ترك كل واحد نفسه وشأنها ، لترد الإساءة بمثلها ،
 لعشنا في صراع دائم مع الناس ، وما استقام نظام المجتمع ، وما صلحت
 العلاقات الاجتماعية التي تربط بين المواطنين . الإنسان في بيته ، ومع أسرته
 قد يرى ما يغضبه ، ومطلوب منه شريعاً وإنسانية أن يكون واسع الصدر ،
 يسارع إلى الحلم قبل أن يسارع إلى الانتقام ، وبذلك تظل أسرته متحابية
 متماسكة ، ومن أخطأ اليوم فقد يصلح خطأه في الغد ، ويندم على ما قدم
 من إساءة ، والإنسان في عمله في الموقع الذي هُيئ له ، سواء أكان موظفاً في
 وظيفته ، أم صانعاً في مصنعه ، أم تاجراً في متجره ، يخالط غيره من
 الناس ، ويتعامل مع كثير من أبناء وطنه ، وقد يُستغضب ويرى ما يسوءه ،
 فعليه أن يضع بدل الإساءة إحساناً ، ومكان الغضب عفواً وحلماً ، والإنسان
 وهو يخرج من بيته في الصباح يلتقي بعشرات الناس في المركبات العامة وفي
 الطريق ، وقد يؤذى من غيره ، ويمكن أن يكون عن غير قصد من المسيء ،
 فعليه أن يتجمل بالإحسان وأن يتزين بمكارم الأخلاق ، وأن يتذكر قول الله
 تعالى : (وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي
 بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ ، كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ،

وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (١).

هذا هو المجتمع الفاضل الذي ينشده الإسلام . . مجتمع حب وود ،
ومروءة وخير ، وفضل وإحسان ، مجتمع متماسك البنيان ، متوحد الصفوف
والأهداف ، فإذا ما دعا الداعى إلى جهاد الأعداء الذين لا يريدون للإسلام
عزاً وانتصاراً ، ولا للمسلمين حرية وكرامة ، هب الجميع على قلب رجل
واحد ، يدافعون عن الوطن ، ويدودون عن المقدسات ، ليحيوا بالعزة التى
أرادها الله لهم بقوله : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) .

فاتقوا الله عباد الله ، وتمسكوا بأهداب دينكم ، يكتب الله لكم السعادة
والتوفيق . عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشج :
« إِنْ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ : الْحِلْمُ وَالْأَنَانَةُ » (٢) .

الجود والكرم

الحمد لله الذى لا تنفد خزائن رحمته : ولا تغيض ينابيع فضله . وأشهد أن لا إله إلا الله الغنى الحميد ، وأشهد أن محمداً رسول الله أندى الناس كفأً ، وأوسعهم برأً ، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين . أما بعد : فإن الإسلام دين يقوم على البذل والإنفاق ، ويضيع على الشح والإمساك . ولذلك حبيب إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخية ، وأكفهم ندية ، ووصاهم بالمسارعة إلى دواعى الإحسان ووجوه البر ، وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم . لا ينفكون عنه فى صباح أو مساء : (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ^(١) .

ومن الواجب على المسلم أن يقتصد فى مطالب نفسه حتى لا تستنفد ماله كله . فإن عليه أن يشرك غيره فيما آتاه الله من فضله ، وأن يجعل فى ثروته متسعاً يسعف به المنكوبين ويريح المتعبين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِذَا تَبَذَّلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ وَإِنْ تُمْسِكَ شَرٌّ لَكَ . وَلَا تُلَامَ عَلَى كِفَافٍ . وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُول ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى » ^(٢) .

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى حين قرن النهى عن التبذير بأمر الإنفاق على القرابة ، والمساكين . فإن المبذر متلاف سفيه ، يضيع فى شهواته الخاصة زبدة ماله . فماذا يبقى بعد للحقوق الواجبة والعون المفروض ؟

(٢) رواه مسلم .

(١) سورة البقرة : ٢٧٤ .

قال الله تعالى : (وَأَتْ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ، وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) ^(١) ، ومضى السياق في الإيحاء بالمحتاجين وصيانة وجوههم فأمر المسلم أن يرجيهم الخير ، وأن يرد بميسور من القول ، إذا كان لا يملك إيتاءهم ما يبتغون :

«وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا» ^(٢) . ودعوة الإسلام إلى الجود والإنفاق مستفيضة مطردة ، وحره على الكرازة والبخل موصولة متقدمة ، وفي الحديث : «السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ . وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ ، وَلِجَاهِلٍ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ عَابِدٍ بِخِيلٍ» ^(٣) .

إنه لم يوجد في الدنيا - ولن يوجد - نظام يستغنى البشر فيه عن التعاون والمواساة ، بل لا بد لاستتباب السكينة وضمان السعادة من أن يعطف القوى على الضعيف ، وأن يرفق الكثير بالقليل . . . ما دامت طبيعة المجتمع البشرى أن تتجاور فيه القوة والضعف ، والإكثار والإقلال ، ولو كان المال في وفرته وندرته يتبع ما أوتي الناس من مواهب معنوية لاكتنز البعض الكثير ، وعاش البعض على الكفاف ، فتلك سنن الخلقة التي لا افتعال فيها ، وإنما يتسرب الشقاء إلى الناس عندما يحيون متقاطعين ، لا يعرفون إلا أنفسهم ومطالبهم فحسب ، مع أن الله عز وجل خلط الناس بعضهم ببعض ،

(٢) سورة الإسراء : ٢٨ .

(١) سورة الإسراء : ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) رواه الترمذى : ٢٧٤ .

وجعل اختلاطهم على اختلاف أحوالهم اختباراً عويصاً ، يحصص الإيمان ، ويوزع به الفضل :

(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا)^(١) . ولن

تنجح أمة في هذا المضمار إلا إذا وثقت الصلات بين أبنائها ، فلم تبق محروماً يقاسى ويلات الفقر ، ولم تبق غنياً يحتكر مباحج الغنى .

وفي الإسلام شرائع محكمة لتحقيق هذه الأهداف النبيلة ، من بينها تنشئة النفوس على فعل الخير ، وإسداء العون وصنائع المعروف ، ونتائج هذه التنشئة السمحة لا يسعد بها الضعاف وحدهم ، بل يرتد أمانها واطمئنانها إلى الباذلين أنفسهم ! فيقيهم زلازل الأحقاد ، وعواقب الأثرة العمياء ؛ قال الله تعالى : (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ)^(٢) .

إن الفقر معرّة إذا ألصقت بالإنسان أخرجته ، وهبطت به دون المكانة التي كتب الله للبشر ، وإنها لتوشك أن تحرمه الكرامة التي فضل الله بها الإنسان على سائر الخلق ، وإنه لعزيز على النفس أن ترى شخصاً مشقوق الثياب ، تكاد فتوقه تكشف سوءته ، أو حافى الأقدام أبلى أديم الأرض كعوبه وأصابعه ، أو جوعان يمد عينيه إلى شتى الأطعمة ثم يرده الحرمان وهو حسير . . والذين يرون هذه الصور الفاحشة ثم لا يكثرثون بها ليسوا بشراً ، وليسوا مؤمنين ؛ فبين البشر عامة رحم يجب أن توصل ، وألاًّ تمزقها الفاقة .

وقضية الإيمان أن يرهب المرء ربه في أمثال أولئك البائسين . ولقد حدث أن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد هذه المناظر الحزينة فشق عليه مرآها ، فجمع المسلمين ثم خطبهم ، فذكرهم بحق الإنسان على الإنسان

وخوفهم بالله واليوم الآخر ، وما زال بهم حتى جمعوا ما أغنى وستر .

عن جرير قال : كنا في صدر النهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه قومٌ عِراءٌ ، مُجْتَابُو النِّمَارِ (مَشْقُوقُو الْمَلَابِسِ) عَامَتُهُمْ مِنْ مَضَرٍ ، فتمعر وجهُ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ (تَغْيِيرُ وَحْزَنِ) فدخل ثم خرج ، فَأَمَرَ «بِلَالاً» فَأَذَنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ، ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدِمَتْ لِغَدٍ) .

ثم قال : لِيَتَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ ، مِنْ دِرْهَمِهِ ، مِنْ ثَوْبِهِ ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ ، حَتَّى قَالَ : وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ .

قال : فجاءه رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل لقد عجزت ! ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب . . . حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه مذهبة^(١) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«فَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(٢) .

وهذا الكلام البليغ دعوة إلى التنافس في الخير : والتسابق في افتتاح مشروعاته النافعة ، كعمونة الشتاء ، وأشباه ذلك ، وهو تحذير كذلك

لأولئك الذين ينشئون التقاليد السمجة ويعقدون بها شئون الجماعة ،
ويتركون من بعدهم يضطرب في شرورها ومتاعبها .

لكن الإنسان مجبول على حب المال ، وللحرص على اقتنائه يضرب في
مناكب الأرض ، وللأثرة في نفسه إبحاء شديد أكثر تفكيره في نفسه
وأقله في الآخرين . ولو أنه أوتي ما في الأرض جميعاً ، بل لو أنه امتلك
خزائن الرحمة العليا ، لما طوعت له نفسه أن تنفق منها بسعة ، ولقامت له
من طبيعته الضيقة علل شتى تضع في يديه الأغلال .

(قُلْ : لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
الْإِنْفَاقِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا) (١). وقد عد الإسلام هذا الشعور من
النزعات الخسيسة التي يجب أن تخاصم بعنف ، وأن تقاوم دسائسها
ببقظة ونشاط ، وبين أن الفوز بخيري الدنيا والآخرة لا يحزره إلا من نجح
في قمع دوافع البخل في نفسه ، حتى عودها التكرم والسخاء :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا ، وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ،
وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٢) . إن الأموال المستخفية في
الخزائن ، المختبئ فيها حق المسكين والبائس ، شر جسيم على صاحبها في
الدنيا والآخرة ، إنها أشبه شيء بالشعابين الكامنة في جحورها ، كأنها رصيد
الأذى للناس ، بل إن الإسلام أبان أنها تتحول فعلاً إلى حيات قد أمرت
واحتدت أنيابها ، تطارد صاحبها لتقضم يده التي غلها الشح .

« . . . ولا صاحب كنز لا يفعل فيه حقه إلا جاء كثره يوم القيامة . »

شجاعاً أقرع^(١) ، يتبعه فاتحاً فاه ، فإذا فر منه سمع من يناديه : خذ كنزك الذي خبأت ، فأنا عنه غني ، فإذا رأى أنه لا بد له منه سلك يده في فيه ، فيقبضهما فقم الفصل^(٢) .

وقد أخذ الإسلام يفهم الإنسان بالحسنى والإقناع أن محبته الشديدة لماله قد تورده المتالف وأنه لو فكر في حقيقة ما يملك وفي عاقبته معه لرأى الساحة أفضل من الأثرة والعطاء خيراً من البخل .

يقول العبد :

مالي مالي ، وإنما له من مالي ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأفنى^(٣) . وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركة للناس^(٤) .

وعجيب أن يشقى امرؤ في جمع ما يتركه لغيره ، وإذا لم يستفد المسلم من ماله فيما يصلح معاشه ويحفظ معاده فمم يستفيد بعد ؟ !

وقد أماط الرسول اللثام عن هذه الحقيقة فقال : «أيكم مال واريته أحب إلي من مالي ؟ قالوا : يا رسول الله ، ما منّا أحد إلّا ماله أحب إليه . قال : فإن ماله ما قدم ومال واريته ما آخر !!!»^(٥) .

ومع ذلك فإن النبي عندما أعلن عن جمع الزكاة تحسس برفق مشاعر الحرص في الناس وتلطف في علاجها فقال : «سيأتيكم ركب مبغضون (يعني جامعي الزكاة) فإذا جاءوكم فرحبوا بهم وخلطوا بينهم وبين ما يتبعون ، فإن عدلوا فلأنفسهم وإن ظلموا فعليهم ، وأرضوهم فإن تمام زكاتكم رضاهم وليدعوا لكم»^(٦) .

(٢) رواه البخاري .

(٤) رواه مسلم .

(٦) رواه أبو داود .

(١) الشجاع الأقرع ، الثعبان المسن .

(٣) يقال أقناه بمعنى : ملكه .

(٥) رواه البخاري .

ونجاح الإنسان في إزاحة عوائق البخل التي تعترض مشاعر الخير فيه - هو في نظر الإسلام فضيلة كاملة ، إذ المعروف أن المرء يشتد أمله في الحياة وتتوثق أواصره بها عندما يكون صحيحَ البدن طامحاً في المستقبل يقصد في نفقته ، ويضعف في ثروته ، ليطمئن إلى غد أرغد له ولذريته ، فإذا غالب هذه العوامل كلها ، وبسط كفه في ماله ينفق عن سعة ، ولا يخشى إقلالاً ولا ضياعاً ، فهو يفعل الخير العظيم .

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أَيْ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْراً ؟ . . قال : « أَنْ تَصَّدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ ، وَتَأْمُلُ الْغِنَى ، وَلَا تَمَهِّلَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ قُلْتَ : لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ كَذَا » (١) .

الصبر

الحمد لله ولى الصابرين ، وأمان المتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله
يمحص الذين آمنوا ويمحق الكافرين . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله
أيده ربه بقوة الصبر واليقين ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فيقول الله عز وجل :

(إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) ^(١) .

أيها المسلمون :

الصبر ملاك الإيمان ، وزينة الإنسان ، وطريقه إلى المعالي والمكرمات ،
إليه يسكن ، وبه يطمئن ، وفي ساحته يقرو ويستريح ، وهو مقام عظيم من مقامات
الدين ، ومنزل كريم من منازل السالكين . وهو في الإسلام خلق له خطره ، وعظم
شأنه ، شاد القرآن بذكره في نيف وسبعين موضعاً منه ، ورتب عليه الثواب
الجزيل ، وضاعف لأهله الحسنات ليحبيه إلى القلوب ، ويرغب فيه النفوس ،
بل لقد قال صلى الله عليه وسلم في شأنه : « الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ » ^(٢)
فما من فضيلة إلا وهو دعامتها ، فإن كان صبراً عن الشهوات سمي عفة ،
وإن كان على احتمال مكروه كان رضى وتسليماً . وإن كان على النعمة
وشكرها كان ضبطاً للنفس وحكمة ، وإن كان في قتال سمي شجاعة وقوة ،
وإن كان بين يدي حماقة أو سفه سمي حلاًماً . وإن كان بكتمان سر سمي

(١) سورة الزمر : ١٠ .

(٢) رواه الطبراني .

صاحبه كسواً وأميناً . وإن كان لفضول في العيش أو الحديث سمي زهداً وهكذا . فالمرء بدونه في الحياة عاجز ضعيف ، لا طاقة له بما قد يشغله ، ولا حول له ولا قوة بين يدي أمر يشق عليه ، وطبيعة الليالي والأيام لا تدوم على حال . إن أحسنت أساءت ، وإن أقبلت فسرعان ما تدبر ، والإنسان أمام أحداثها ضعيف الإرادة ، لين العريكة ، لا يقوى على الصمود ، ولا يحتمل وقع الشدة ، لذلك فإنه بحاجة إلى طاقة يواجه بها هذا الأمر ، وقوة يجتاز بها ما قد ينزل به ، وليست متوافرة عند كل الناس .

فمن الناس قوم عاشوا وشغلهم شاغل أنفسهم وحفظها ، أدخلوا إلى الأرض وربطوا أسباب السعادة بها ، لا حكم بينهم غير المنفعة ، ولا قانون إلا الأثرة والأنانية ، ولو تحطمت كل المبادئ والقيم ، وانتهكت الحرمات ، وذابت في بوتقة الرذيلة المعتقدات .

إن هؤلاء لا يطبقون فراقاً لما ألفوا ، وربما ألقوا الموت الرخيص فراراً من قضاء الله فيما فقدوا ، فيبيعون بخزى الدنيا وعار الآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . وفيهم وفي أمثالهم يقول تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَذْهُوراً) . ولقد نبه القرآن الكريم إلى عظم الخطر المحقق هؤلاء قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) : وقال سبحانه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) (ولما نظر صلى الله عليه وسلم إلى ولده الحسن وهو يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله : (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) (إني لما رأيت ابني يتعثر لم أملك نفسي أن أخذته^(١)

(١) أخرجه أصحاب السنن .

ومن الناس من تحلوا بالإيمان بالله فلانت له قلوبهم ، وكان الزاد الذى تقوم به حياتهم ، والقوة التى تتحقق من خلالها أمجادهم .

هؤلاء رأوا أن السعادة ليست فى مال يجمع ، أو ولد قد ينفع أو لا ينفع ، أو جاه أو سلطان ، أو راحة أو اطمئنان ، وإنما سعادتهم فى أن يكونوا والله عندهم راض ، وأن تكون دنياهم بما اشتملت عليه فى خدمة هذا الغرض الأسمى ، والقصد الأقوم ، الأرواح والأموال والأولاد ، وكل ما يعتز به الإنسان فى هذا الباب سواء ، فهم فى النعمة شاكرون ، وإذا مسهم الضر فإلى الله ينجأون ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله رأيتهم يسارعون . إنهم ليدكرون قول الله سبحانه : (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلُوْهُكُمْ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ) . اختارهم الله وارتضاهم . ومنحهم من فضله واجتباهم . عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الله عز وجل قال : يا عيسى إني باعث من بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا الله . وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم فقال : يا رب كيف يكون هذا . قال : أعطيهم من حلمى وعلمى » (١) .

هؤلاء إذا نزل بهم ما يكرهون ، أو كلفوا بما لا يستطيعون ، أو طُلبوا بما لم يألفوا ، أو دعوا إلى ضد ما أحبوا ذكروا الله فحملوا أنفسهم على الرضا بأمره ، والتسليم لحكمه ، والوقوف عند حده ، وليس ذلك إلا الصبر الذى أمر الله به حبيبه إذ قال : (فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا . .) (٢) .

(١) رواه الحاكم وقال صحيح على شرط البخارى . (٢) سورة طه : ١٣٠ .

وكذا ضرورى فى حياة الأفراد والجماعات ، فلولا له لم تكن أبوة ولا أمومة كما لم تكن للإنسان حياة .

وما من فضيلة إلا الصبر دعامتها ، ولا رذيلة إلا الصبر هو الدرع الواقية من شرها . كما لم يعرف عظيم إلا كان الصبر زاده الأقوى . لذا كان خلق الأنبياء والمرسلين وعلى رأسهم سيد النبيين . قال تعالى : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ) (١) ، ولقد نهج سبيله الخلفاء والصحابية الأكرمون . والتاريخ حافل بالبطولات فى هذا المضمار . فهؤلاء أمثال بلال وعمار بن ياسر وصهيب أولئك الذين أوفوا فما وهنوا لما أصابهم وما ضعفوا وفى ميادين الشرف أمام الأعداء شهدت الدنيا رجالا باعوا فى سبيل الحق أنفسهم وأموالهم ، وتمنوا الشهادة رضى بما أعد الله لهم فاتاهم الله ثوابهم ، ونصرهم على عدوهم ، الرجال والنساء فى هذا الميدان سواء . وعلى طريق هؤلاء حمل الراية من بعدهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

فمحمد الفاتح مقوض دولة الروم الشرقية ، وفاتح القسطنطينية ، وصلاح الدين قاهر الصليبيين ، والقائد المظفر قطز قاهر التتار ، وحامى حمى الإسلام والمسلمين ، وعبد الرحمن الأموى صقر قریش الذى فر من العراق إلى الأندلس حيث أسس دولة ، وأرسى حضارة ، وأقام مدنية كانت فى التاريخ درة فى تاج العالمين - كل أولئك كان الصبر أقوى سلاح فى حياتهم ، حققوا به النصر على الحياة ، وعلى ما فى الحياة ، وما لنا نعيش بعيداً !!

أليس الصبر سلاح الطالب حتى ينجح ، وعون التاجر حتى يربح ، وعدة الزارع والصانع حتى تنمو ثروتها ، وملمه الباحث والعالم ليلبغ غايته؟

نعم : إنه الزاد لكل أبناء الأمة ، حتى يكونوا اللبنة القوية التي تشد من أزر أمتهم ، وتحقق لها الأمجاد ، وتقيم صروح العزة والكمال .

والأمة كالفرد ، فحتى يكون بنيانها قوياً ، وتتبوأ في الدنيا مكاناً عالياً ، لا بد لها من الأخذ بكل القيم والفضائل ، وتطهير المجتمع من الدنيايا والردائل ، والضرب على يد العابثين بقيمتها ومقدراتها ، وعزل جميع القوى المضادة والسلبية من مسيرتها . وتوطين النفس على البذل والتضحية ، وتقديم أعلى ما عندها حتى تستطيع أن تنمي مواردها ، وتسليح نفسها ، وتوفر لأبنائها كل أسباب الرخاء والسعادة ، وتكفيهم ذل المهانة والحاجة ، وهي ككل كائن حي لا بد أن تتعرض لما لا تحب ويحقيق بها بعض ما تكره من حديث يفزعها أو عدو يفجأها أو خطب يتهددها . فما لم تكن لها إرادتها وقوتها ، وعزمها وجلدها فسوف تنهار أمام المحن ، وتذوب في خضم ما تواجه من أعاصير ، تعصف بكل مقدراتها وأمجادها . وقد تقضى عليها وتذهب بحياتها قال تعالى : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) .

وكم رأينا من أمم كانت قوة الحديد والنار تحكمها فصبرت وصابرت ، وجالدت وجاهدت حتى استردت حريتها ، واستعادت كرامتها ، وفرضت على الدنيا إرادتها ، وحملت عدوها على التسليم لها والاعتراف بها ، والفضل كل الفضل في ذلك مرده إلى الإيمان بالله الذي تهون أمامه الشدائد ، وتزول بين يديه الصعاب ، بما يزود به صاحبه من طاقات يستعلي بها على الحياة ، وعلى كل ما يعترضه في هذه الحياة . قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ »

نعم إنه الصبر الذي أعطى الله عليه من الثواب ما لم يعط على سائر

العبادات ، قال تعالى : (إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)^(١)
وَأَمْدُ أَصْحَابِهِ بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ حِينَ قَالَ : (بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)^(٢) .
وغمر أصحابه بالفضل بقوله : (أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)^(٣) .

أيها المسلمون : إن الأمة الإسلامية وهي تمر بهذه الفترة من حياتها ، وتواجه هذه التيارات من حولها ، جدير بها أن تنفيء إلى أمر الله ، وتأخذ من الصبر الوقاية التي تحفظها من ويلات ما تعاني ، وتدفع عنها صروف الحياة ، وتزودها بما تتسلح به في وجه البغي والطغيان . وتمنحها أسباب القوة والمنعة . وتكون بها على قلب رجل واحد في مواجهة العدوان .

ما أجمل أن يتخلق شبابه وشبابها ، كبارها وصغارها ، رجالها ونساءها بهذا الخلق النبيل في كل شؤونهم ، فلا يستهوهم بريق الحياة فينسوا الوجوب ، ولا تزعجهم حادثات الليالي فيخلدوا إلى الضعف ، ولا تستحوذ عليهم نيارات الهوى فيميلوا عن الجادة . إن عليهم أن يوطئوا أنفسهم على مواجهة كل تصارييف الحياة : حلوها ومرها ، خيرها وشرها بقلب المؤمن الصادق ، وأن يعلموا أن الأيام دول فيوم علينا ويوم لنا ، ويوم نساء ويوم نسر ، وأن يذكروا ذلك فهو سنة الله في خلقه فهو القائل : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ) . وأن واجبا عليهم أن يستعينوا بالصبر والصلاة حتى يصيبوا أجر الصابرين الذين قال الله فيهم : (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) .

جلدير هذه الأمة أن تتسأى بهذا الخلق عن كل ما يقعد بهمتها ، ويزرى بكرامتها ، ويحط من قدرها ، وأن تتسم بالشجاعة والقوة في السراء وفي الضراء وحين البأس ، إيماناً منها بأن العاقبة للتحقوى ، وأن مرد الأمور كلها إلى الله عز وجل ، وأن ما أصاب المرء لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن نذكر أن الإيمان لا بد له من الخلق حتى يؤدي صاحبه في الحياة واجبه ، ويقف به في معترك الأحداث صلباً قوياً لا يهن ولا يلين ولا يتخاذل ولا يستكين ، فهو حريص على الحق ونصرته حرصه على الحياة .

وما أجمل توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المضمار حين يقول : « مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ ، وَابْتُلِيَ فَصَبَرَ ، وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ ، وَظُلِمَ فَغَفَرَ ، ثُمَّ سَكَتَ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا لَهُ ؟ قَالَ : (أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) » .

فانقوا الله عباد الله ، واعلموا أنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون ، وأنه ما أعطى أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر . واذكروا قول الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^(١) .

عن صهيب الرومي رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَصَابَتُهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ »^(٢) . وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةُ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ »^(٣) .

(٢) رواه مسلم .

(١) سورة آل عمران : ٢٠٩ .

(٣) رواه الترمذى .

القصد والعفاف

الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ، وأشهد أن لا إله إلا الله جعل المسلمين أمة وسطاً ، وغمرهم بنعمته وتأييده فى الدارين : (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ)^(١) .
وأشهد أن محمداً رسول الله بعثه الله بالحنيفية السمحة ، لا جور فيها ولا شطط : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ، اللهم صل على سيدنا محمد وآله وأصحابه والتابعين .

أما بعد : فإن حياة المؤمن المصدق بالدار الآخرة ليست كحياة الكافر ، الذى يعدّ عمره فوق ظهر الأرض هو دنياه وآخرته معاً ، هو فرصته الأولى والأخيرة لقضاء لباناته ، وإدراك غاياته .

وأكثر الذين يفقدون عفتهم ، ويتبعون نزواتهم ، ويعيشون للمتعة وحدها ، هم من ذلك الصنف الأخير ، أو هم إليه منتهون إن لم يثوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن غيهم . وفى هؤلاء يقول الله عز وجل : (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)^(٢) .

ويقول : (رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ . ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)^(٣) . أما المؤمن فهو يقسم آماله ورغائبه

(٢) سورة محمد : ١٢ .

(١) سورة النحل : ٣٠ .

(٣) سورة الحجر : ٢ و ٣ .

على معاشه ومعه ، ويطلب الخير لنفسه في يومه وغده ، وقد علمنا القرآن الكريم أن التطلع إلى النعمة والسعادة في كلتا الحياتين هو من أكبر الذكر لله ! !

قال الله تعالى : (فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ^(١)) . وقد جاء في النصيح « لِقَارُونَ » ما يؤكد العمل للحياتين معاً ، فإن الدنيا وسيلة للآخرة ، وصحة الوسيلة ضمان لنجاح المقصد ، كما أن انتظام المقدمات مُودَّ إلى تحصيل النتيجة المطلوبة . ومن ثم تضمن إرشاد الله « لقارون » هذه المعاني كلها :

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) ^(٢) .

* * *

بناء على ما تمهد من هذه القواعد يوصى الإسلام المرء ألا يكون عبد بطنه ، يعيش في الدنيا ليأكل ، ويغدو ويروح وليس له من هم إلا أن يجمع على مائدته ألوان الطعام ، فإذا حشد فوقها ما لذ وطاب سرَّ واطمأن . وإلا تغير وتغيظ ، وحسب أن القدر يكيد له .

إن الرجال الذين يمعنون في التشبع والامتلاء ، ويبتكرون في وسائل الطهي وضروب التلذذ ، لا يصلحون لأعمال جليلة ، ولا ترشحهم همهم القاعدة

لجهاد أو تضحية ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أَكْثَرُ النَّاسِ شَبَعًا فِي الدُّنْيَا أَطْوَلُهُمْ جُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(١) . والمعروف أن عدداً كبيراً من الأمراض الشديدة والعلل المنهكة ينشأ عن اكتظاظ المعدة بما لا تطيق هضمه ، ولذلك جاء في الحديث : « مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ »^(٢) .

وتخفف الإنسان من مقادير الأَطْعَمَة لا يتم بالتزهد المجرد ، أو الامتناع لغير معنى مفهوم ، بل الطريقة الصحيحة أن يربط الإنسان همته بمطمح كبير ثم ينشغل بتحصيله ، فإن هذا يصرفه عن فنون اللهو ، وأنواع الملذات الرخيصة .

حدث أن أضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً كافراً ، فأمر له بشاة فحلبت ، فشرب حلابها ، ثم أخرى ، فشرب حلابها ، حتى شرب حلاب سبع شياه ، ثم إنه أصبح فأسلم فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة فشرب حلابها ، ثم أخرى فلم يستتمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنْ الْمُؤْمِنُ لِيَشْرَبُ فِي مَعَى وَاحِدٍ ، وَالْكَافِرُ يَشْرَبُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءَ »^(٣) .

وذلك أن الرجل غلبه التفكير عندما شعر ببروعة الانتقال من طور الجاهلية إلى طور النور ، وعندما عرف موقفه الجديد من ربه ، وتكاليف دينه ، وحساب آخرته ، فكان لارتفاع همته إلى تأسيس حياة أرقى مما مضى ، أثر بالغ في عزوفه عن الاستزادة مما قدم له ، والحق أن ملذات الطعام وحطام الدنيا أنزل قدراً من أن يتفانى الناس فيها على النحو الشائن الذي نراه في عصرنا هذا ، عصر المادية والإسراف .

(٢) رواه الترمذی .

(١) رواه البزار .

(٣) رواه مسلم .

وشيء آخر يوجب إشاعة القصد والعفاف في جنبات المجتمع الإسلامي ، ويفرض على المسلمين أن يأخذوا أنفسهم بأسلوب من الصرامة والدقة في أنحاء معاشهم كلها ، فإن خصوم الإسلام لا يزالون يناوشون أمتهم في غير ميدان ، وتحرير المسلمين من قيود التدخل الأجنبي والاستعمار الخارجى لا يزال واجباً ثقیلاً الأعباء .

وإليك مثلاً من توجيهاتنا للمسلمين في أعقاب القتال :

المعركة بيننا وبين عدونا لم تضع أوزارها ، فإن مداها بعيد ، وأدوارها طويلة ، ونحن لا نخرج من مرحلة إلاّ لندخل في أخرى قد تكون أجدر بالحذر ، وأحرى بالبذل . والشعور بهذه الحقيقة يكلفنا أن نكون على استعداد موصوم ، وأهبة يقظة ، ويتقاضانا أن ننقب في أحوالنا كلها ، فكل ما قارب حياة الرفاهية والرخاوة نبذناه ، وكل ما واعم حياة الكفاح والرجولة لبسناه ، ولن نزال كذلك حتى نغسل بلادنا من أدران الاستعمار ، ونشارّ لما لحق ديارنا من عدوان . . .

إن بعض الناس حريص على نحو من المعيشة ، تخالطه اللذة ، وتحفه المتع ، وإذا كانت الحروب تكلف الأمم أن تنزل عن الضرورات الماسة في إبان الشدائد ، بل تكلفها أن تضحي بالنفس والمال ، فماذا يكون موقف أولئك المهازيل الحراص على الكماليات والمكيفات ، ونحن نواجه خصوماً معنتين ، وأعداء متربصين ، يريدون سلب حياتنا وشرفنا .

لا شك أن هؤلاء يجب أن يعاملوا بصرامة وقسوة ، فمن النذالة أن يهتم البعض بشهواته الخاصة ، ويضطرب لفقدانها ، في حين تكلف الجماهير أن تتعرض للحتوف ، في سبيل مثلها العليا . . .

إن الأعباء المفروضة علينا في هذا العصر - نحن العرب والمسلمين -

تفرض أن نذهل عن شتى المغريات ، وصنوف المرفهات ، فلسنا في صراع هازل مع قوم تافهين .

إننا في صراع مرّ مع زبانية الأرض ، سيطرة الاستعمار . .

إننا في صراع حاسم يقرر الحياة أو الممات . ومن ثم يجب أن نراجع أساليب الحياة التي نحياها ، لنحذف منها كل ما يضعف بنا عن المضى في هذه الحرب الضروس . . .

أيها المسلمون :

هذه الأيام لا تتحمل تقاليد السرف السفیه في المآكل والمشارب والملابس . لقد كانت بعض أمم الغرب تتنازل عن الزيد ، وهو في الجو البارد من الضرورات اللازمة - لتوفر من ثمنه المدافع التي تحصن بها نفسها . وهذا تصرف معقول ، بل هذا هو طريق الحياة الأبّية ، ومسلك الشعوب الحصيصة الذكية . أما الأمم التي تجزع لاختفاء نوع من الخضر ، أو الفاكهة ، أو الطيور ، فهي أمم تحكم على نفسها بالبوار . لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب طاقة كبيرة على الحياة مهما تباينت ظروفها ، ولقد علم صحبه أن الاستسلام العام لشهوات البطن سقوط بالهمة ، وخور في العزيمة ، وضعف في اليقين ، واسترخاء مع الشيطان . وقال يصف المجتمعات المعتلة : « إن القوم لما شبع بطونهم ، سمنت أبدانهم ، فضعت قلوبهم وجمحت شهواتهم » (١) .

وقال : « إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغَىِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضَلَّاتِ الْهَوَى » (٢) .

وقال : « إِن شَرَّارَ أُمَّتِي الَّذِينَ غَدَّوْا بِالنَّعِيمِ وَنَبَتَتْ عَلَيْهِ أَجْسَامُهُمْ » (٣) .

وهذا التشديد إنما يتناول الخواريين العجزة ، الذين يتعالى صياحهم بطلب أمور كثيرة كلما تعرضت الأمة لضائقة ، أو فرض الجهاد أن ينزلوا عن كثير مما ألفته أيام الاسترواح والنعموة .

إننا نطالب العرب في هذا الوادى كله ، وفي طول بلادهم وعرضها ، أن ينسوا تقاليد الولائم وسعة الموائد ، وضروب التشبع من الحلال ، وليجعلوا من هذا الاقتصاد باباً لإطعام الجائع ، وإعطاء المحروم ، ومواساة المنكوب ، وليجعلوا منه كذلك باباً إلى تربية النفس على احتمال المشقات ، في عصر نواجه فيه حروباً لا يعرف آخرها ، ولا يدري متى يرعى خصومنا فيها .
أيها المسلمون :

وهذه الأيام توجب علينا أن نعيد النظر في ملابسنا ، وما ألفه رجالنا ونساؤنا منها . إن المرأة التي لا تزال تفكر في ارتداء حرير نسجه أعداؤها ، والرجل الذي لا يزال يفكر في اقتناء صوف صنعه القتلة ، قتلة أبنائنا وإخواننا ، هذا الرجل وهذه المرأة لن يكونا أبداً أساس أمة عريقة ، ولانواة مستقبل كريم .

يجب أن نحرم على جلودنا أن يمسه هذا الوارد الأجنبي من بلاد المعتدين ، ولن نكون منطقيين مع أنفسنا إذا سمحنا لملابسهم أن تحتل جسامنا ، ونحن نريد قذفهم بعيداً عن حدودنا ، حتى لا يحتلوا وطننا .
ثم ما هذه الأناقة ، التي يحاول ألوف النساء والرجال أن يظهروا فيها ، أهذه أيام تزيّن وتبرج ؟ ! هذه أيام خشونة ومصاولات وجولات .

إن الإحساس الصادق بخطورة المعارك التي نخوضها يتنافى مع هذا الهزل السمج ، وإن الإسلام ليزجر الرجال والنساء عن هذه الميوعة في عهود السلام ، فكيف بأيام القتال ؟ ! لقد كان رسول الله يرقع ثوبه ، ويخصف نعله .

وعن شداد بن الهادي من الصحابة - «رأيت عثمان بن عفان يخطب الجمعة وعليه إزار عذني غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة» (١) .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ لَيْسَ ثَوْبَ شَهْرَةٍ فِي الدُّنْيَا ، أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ أَلْهَبَ فِيهِ نَارًا» (٢) .

قد يفهم من ذلك أن الخشونة سمة الحياة الإسلامية ، ولو صح هذا الفهم فأى عيب فيه ؟ ! على أنه من المستغرب أن تقرر ليونة العيش باستعمال الحرير والذهب . . إن جماهير البشر يمكنهم أن يحيوا سعداء وادعين ، دون أن يتحلوا بذهب أو يرتدوا الحرير .

لكن الإسلام يريد أن يجتث جذور الترف من معيشة الفرد ، ومعيشة الجماعة ، حتى يسلم للأمم كيانه ، ويبقى تماسكها . وجدير بالأمة المسلمة أن تجعل حياتها جندية لله ، وتاريخها جهاداً موصولاً لإعلاء الحق ، وحماية دعوته ، وظاهر أمرها وباطنه ترفعاً عن فتن الدنيا وملاهيها الصغيرة .

أما التهالك على الشهوات ، والتهاوى في المحرمات ، فهو فرار من التكاليف ، ونكوص عن الجد ، وتضييع لمعالم الشرف ، وتلك خلال إن تسربت إلى أمة وأدنتها .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «سَيَكُونُ رِجَالٌ مِنْ أُمَّتِي ، يَأْكُلُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ وَيَشْرَبُونَ أَلْوَانَ الشَّرَابِ ، وَيَلْبَسُونَ أَلْوَانَ الثِّيَابِ ، وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلَامِ ، أُولَئِكَ شِرَارُ أُمَّتِي» (٣) وإنك لترى مصداق هذا الحديث في أقوام ورثوا الدين كلاماً ، واتخذوه لهواً ولعباً ، فضاخوا في الدنيا ، وضاعت بينهم حقائق الدين .

(٢) رواه ابن ماجه .

(١) رواه الطبراني .

(٣) رواه البخاري .

إن الله نعى على قوم ولعهم باللذائذ ، وافتتنهم بالمرح واللهو ، وانحصارهم في مطالب الجسد ودنيا الغرائز السفلى فقال :

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ) ^(١).

وعندما يلقون عقوبتهم يذكرون بأن ذلك لفقدانهم العفاف والقصد ، وانطلاقهم مع الغواية والمجون ، (ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ) ^(٢).

والحق أن كفلاً ضخماً من تصدع الدولة الإسلامية يرجع إلى ضياع العفة ، وشيوع المذات ، وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته من هذا الانحلال النفسى :

فعن أبي برزة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغَىِّ : بُطُونُكُمْ وَفُرُوجُكُمْ ، وَمُضِلَّاتِ الْهُوَى » ^(٣).

(٢) سورة غافر : ٧٥ .

(١) سورة الأحقاف : ٢٠ .

(٣) رواه أحمد .

النظافة والتجميل والصحة

الحمد لله القوى القدير ، سبحانه وتعالى لا رب غيره ، ولا معبود سواه ، مدح عباده بحرصهم على تنظيف أجسادهم وتنظيف ظواهرهم ، كما ينظفون بواطنهم فقال : (فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ)^(١).

نحمده ونشكره ونتوب إليه ونستغفره ، ونشهد أن لا إله إلا الله حبيب إلينا الإيمان ، وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان . . ونشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله ، أرسله ربه بخير دين لخير أمة ، وكان من توجيهاته لأئمة أن يعملوا على أن يكونوا أصحاب الأجسام ، أقوىاء البنية : فقال : « سَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فَإِنَّ الْعَبْدَ مَا أُعْطِيَ بَعْدَ يَقِينٍ خَيْرًا مِنْ عَافِيَةٍ »^(٢) . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به ، واتبعوا النور الذي أنزل الله ، فرضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك في جنات مكرمون . . .

أما بعد . . فيقول الله تعالى وهو أصدق القائلين : (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)^(٣) .

أيها المسلمون : ما منح الإنسان نعمة بعد الإيمان والتوحيد أعظم من نعمة الصحة ، والسلامة من الأمراض والأسقام ، فإن العبد ما أعطى بعد يقين خيراً من عافية ، والمؤمن إذا أعطى عقلاً سليماً في جسم سليم طابت حياته ،

(١) سورة التوبة : ١٠٨ .

(٢) رواه سلم .

(٣) سورة لقمان : ٢٠ .

وعاش سعيداً هانئاً ، يقبل على عمله وهو مغتبط ، ويزيد في إنتاجه وهو أتم ما يكون تفاؤلاً وانشراحاً ، ومن سنن الله في عباده أن البقاء في الكون للأقوياء ، وهم الصالحون لعمارة الأرض ، كما قال تعالى :

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ، إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ)^(١) . فما علت أمة إلا بقوة أبنائها ، فالأمة القوية هي التي تتكون من أفراد أقوياء ، أقوياء الأجسام ، وأقوياء العقول ، وأقوياء الإرادة ، ومن كان قوياً عاش عزيزاً ، يهابه العدو ، ويخشى بأسه الحاقده ، أما الضعاف المهازيل ، فإنهم يعيشون على هامش الحياة ، يطمع فيهم الطامعون ، وينال منهم الأعداء ، تلك سنة الحياة ، وما أجمل ما قيل :

خلق الضعيف لخدمة الأقوي
وليس له اختيار
فتقو يرهبك القوى وهن
يلازمك الصغار

وقد نظم الدين لقوة الأجسام منهجاً رشيداً ، وحث على اتباع هذا المنهج والتمسك به ، وذلك يتأتى بالمحافظة على الصحة ، وبالعناية بالأبدان ، ووسيلة ذلك النظافة ، لقد جعل الإسلام النظافة أساس العبادة ومفتاحاً لها ، وجعل طهارة الجسم التامة أساساً لا بد منه لكل صلاة ، وجعل الصلاة واجبة خمس مرات كل يوم ، وكلف المسلم أن يغسل جسمه كله غسلاً جيداً في أحيان كثيرة ، وتلك هي الطهارة الكاملة ، وفي الأحوال المعتادة اكتفى بغسل الأعضاء والأطراف التي تتعرض لغبار الجو ، ومعالجة شتى الأشغال ، أو التي يكثر الجسم إفرازاته منها ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ

إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا^(١) . وروى عن أبي مالك الأشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطَّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ »^(٢) .

ويحدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً على الوضوء ، لأنه طريق الصلاة المفروضة والمسنونة ، حتى نقف بين يدي الله في أكمل زينة ، روى أحمد عن أبي أسامة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا تَوَضَّأَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ ، خَرَجَتْ ذُنُوبُهُ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَإِنْ قَعَدَ قَعَدَ مَغْفُورًا لَهُ »^(٣) .

والإسلام وهو يبحث على ذلك يطلب من أبنائه أن يكونوا دائماً على هذه الحال من الطهارة ، حتى عندما يريدون أن يأتوا إلى مضاجعهم ليستريحوا من تعب العمل طول النهار فيقول صلى الله عليه وسلم : « إِذَا اتَّخَذْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْيَمَنِ »^(٤) . وقد بين صلى الله عليه وسلم أن أمته تعرف من بين الأمم على كثرتها بهذا النوع من النظافة ، وهذا الأثر من الطهارة ، فيقول : « إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ »^(٥) وأرشدنا إلى أن الوضوء هو طهارة ونظافة - طريق إلى تكفير الذنوب ،

(٢) رواه مسلم والترمذى .

(١) سورة المائدة : ٦ .

(٤) رواه مسلم .

(٣) رواه أحمد .

(٥) رواه البخارى وسلم .

ومحو الخطايا فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَذَلِكَ الرِّبَاطُ . فَذَلِكَ الرِّبَاطُ » (١) .

وقد أوجب الإسلام النظافة من الطعام ، فبعد أن ندب إلى الوضوء له ، أمر بأن يتخلص الإنسان من بقايا طعامه وروائح وآثاره ، وهذا وأنقى للمرء وأطيب ، روى عن رسول الله قال : « بَرَكَةُ الطَّعَامِ الْوُضُوءُ قَبْلَهُ وَالْوُضُوءُ بَعْدَهُ » (٢) . وقد اقترنت نظافة الوضوء ونظافة الطعام في هديه صلى الله عليه وسلم ، فعن أبي أيوب قال : « الْمُتَخَلِّلُونَ فِي الْوُضُوءِ وَالْمُتَخَلِّلُونَ مِنَ الطَّعَامِ ، أَمَا تَخْلِيلُ الْوُضُوءِ فَالْمُضْمَضَةُ وَالِاسْتِنْشَاقُ وَبَيْنَ الْأَصَابِعِ ، وَأَمَا تَخْلِيلُ الطَّعَامِ ، فَمِنْ الطَّعَامِ ، إِنَّهُ لَيْسَ أَشَدَّ عَلَى الْمَلَكَيْنِ مِنْ أَنْ يَرِيَا بَيْنَ أَسْنَانِ صَاحِبِهِمَا طَعَاماً وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي » (٣) . وإذا علمنا أن أكثر ما يصيب الإنسان من أمراض يكون عن طريق عدم العناية بالفم ، وعدم المحافظة على الأسنان ، بترك بقايا الطعام بينها ، أدركنا سر توجيه الرسول لأئمة بأن يحرسوا على السواك ويلتزموا استخدامه . قال رسول الله : « تَسَوَّكُوا فَإِنَّ السَّوَاكَ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ ، مَا جَاءَنِي جِبْرِيلُ إِلَّا أَوْصَانِي بِالسَّوَاكِ حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتِي » (٤) .

ومن احترام الإسلام للفرد والمجتمع أنه كره لمن أكل ثوماً أو بصلاً وكل ما له رائحة نفاذة غير طيبة أن يحضر المجتمعات ، وقد أسقط الإسلام سنة الجماعة في المسجد ، ولها درجاتها عند الله - أسقطها عن تناول

(٢) رواه أبو داود .

(٤) رواه ابن ماجه .

(١) رواه مسلم .

(٣) رواه أحمد .

هذه المواد ، كما أسقط سنة الجماعة عن الذين أصيبت أجسامهم بعلل تجعل لها روائح غير طيبة ، وذلك لكي تكون التجمعات الإسلامية ذات مظهر طيب كريم . . . ويوصى الإسلام بأن يكون المرء حسن المنظر ، كريم الهيئة ، وقد ألحق هذا الخلق بآداب الصلاة قال تعالى : (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)^(١) ، فالأناقة في نظر الإسلام مرغوبة ، والتجمل - في غير سرف - محمود ، والثوب الطيب دليل طيب لابس ، ومن أول ما أوحى الله به إلى رسوله الحث مع تكبير الله على تطهير الثوب : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)^(٢) وروى عن جابر بن عبد الله أن النبي رأى رجلاً رأسه شعث ، فقال : « أَمَا وَجَدَ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ ؟ » ورأى آخرَ عليه ثيابٌ وسيخةٌ فقال : « أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَا يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ ؟ »^(٣) .

وإن من يفهم الدين على أنه يرضى عن فوضى الملابس واتساخها ، ويعد ذلك ضرباً من العبادة ، يحرف الدين عن مواضعه ، ويلبس الحق بالباطل ، ويفتري على تعاليمه ، والمسلم الذي يضم إلى نظافة باطنه نظافة جسده وجمال ملبسه ، مسلم فاهم أهداف الإسلام ، مطبق تعاليمه ، متخلق بأخلاقه ، قال رسول الله : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ ، فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ، فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ »^(٤) .

وفي رواية أن رجلاً حسن الشكل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني أحبُّ الجمال ، وقد أعطيت منه ما ترى ، حتى ما أحب أن يفروقني

(٢) سورة المدثر : ١ و ٢ و ٣ و ٤ .

(١) سورة الأعراف : ٣١ .

(٤) رواه مسلم .

(٣) رواه أبو داود .

أحد بشراك نعل ، أَفَعَيْنَ الكبر ذلك يا رسول الله ؟ قال : « لا . . ولكن الكبر بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمَضُ النَّاسِ » . . .

وقد امتد هذا التجمل من أشخاص المسلمين إلى بيوتهم وطرقهم ، وكان اليهود يفرطون في هذا الواجب ، فحذر المسلمون من التشبه بهم ، روى أن الرسول قال : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَّمَ ، جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ ، فَنَظَّفُوا أَفْنِيَتَكُمْ ، وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ »^(١) . والإسلام وهو يأمر بذلك يقصد إلى تخليه البيوت والشوارع من القمامات التي تنبعث منها رائحة غير طيبة ، وتكون مباءة للحشرات ، ومصدراً للعلل وانتشار العدوى ، وخصوصاً الذباب الذي يكثر انتشاره في فصل الصيف ، وخطره معلوم في نشر عدوى الحميات وأمراض العيون ، وكم من عين سليمة ، نقلت إليها ذبابة صغيرة مرضاً من الأمراض فأتلفتها ، ولم يستطع صاحبها أن يسترجع بصره الذي كان يتمتع به .

وصدق الله في قوله : (وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)^(٢) .

إن عناية الإسلام بالنظافة والصحة جزء من عنايته بقوة المسلمين المادية والأدبية ، فهو يتطلب أجساماً تجرى في عروقها دماء العافية ، ويمتلئ أصحابها فتوة ونشاطاً ، فإن الأجسام المهزواة لا تتحمل عبئاً ، والأيدى المرتعشة لا تقدم خيراً ، والمسلمون اليوم في أشد الحاجة إلى هذه القوة البدنية ليتصدوا في عزم وقوة للتجديات الخارجية ، والتحديات الداخلية ، فالعدو في الخارج يتوَّجَّه لضرب قضية التحرر في العالم العربي والإسلامي ، ويكتل جميع قواه ليقضي على المدِّ التحرري في أمتنا الناهضة ، وإسرائيل تعي قواها المادية

(١) رواه الترمذی .

(٢) سورة الحج : ٧٣ .

لثبّت أقدامها في قلب الأمة العربية ، وسبيلنا لمواجهة هذا العدوان هو التسليح بالقوة ، وإعداد الجيش المسلح المدرب أحدث تدريب ، وإعداد ما نستطيع من وسائل لمواجهة هذه التحديات والقضاء عليها ، والله تعالى يحثنا على ذلك ، قال تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) ^(١) . ونجابه بهذه القوة كذلك التحديات الداخلية التي تقتضيها عملاً دائماً وسعيّاً متواصلاً ، وجداً ودأباً ، حتى نعوّض مسافة التخلف التي فرضت على أمتنا من أعدائها ، وعن طريق مضاعفة الجهد ندرك الركب المتقدم ، ونحقق لمجتمعنا حياة العزة والكرامة ، ونستخرج ما أودع الله في أرضنا من خيرات بسواعدنا الفتية ، وعزائمنا القوية : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) ^(٢) .

أيها المسلمون . . .

إن الماء هو وسيلة التطهر ، والماء نعمة من نعم الله على عباده ، منه نرتوي ، وبه نتطهر ونتجمل ، فعلينا أن نحافظ على نظافته ونقاؤه ، ليبقى كما خلقه الله طهوراً طيباً . . . قال تعالى : (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُخْضِيَ بِهِ بَلَدَةَ مِثْنًا وَنُنْقِيَهُ . مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَا سَيِّ كَثِيرًا) ^(٣) . وقال : (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) ^(٤) . وإن كثيراً من الأمراض المتوطنة المنتشرة في قرانا على كثرتها سببها تلوث المياه بفضلات الإنسان ، ولهذا نهى الرسول عن هذه الظاهرة فقال : « اتَّقُوا الْمَلَأَيْنِ الثَّلَاثَ : الْبُرَازُ فِي الْمَوَارِدِ ، وَقَارِعَةُ الطَّرِيقِ ، وَالظَّلَّ » ^(٥) ، وعن جابر عن النبي صلى

(٢) سورة الملك : ١٥ .

(١) سورة الأنفال : ٦٠ .

(٤) سورة الأنبياء : ٣٠ .

(٣) سورة الفرقان : ٤٨ و ٤٩ .

(٥) رواه أبو داود .

الله عليه وسلم أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الرَّائِدِ ، وعنه أيضاً : نَهَى أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الْجَارِي^(١) .

وإذا نظفت الأجساد والثياب والبيوت والطرق ، سلمت قوتنا البدنية ، وتقوت تبعاً لذلك قوتنا العقلية ؛ فالعقل السليم في الجسم السليم ، والإنسان يتميز عن غيره من المخلوقات بأن الله أودع فيه نعمة العقل ، وأوجب عليه أن يحافظ على سلامته ، وأن يعتنى به عن طريق التعلم والمعرفة ، والعلم وسيلة للحياة الكريمة الفاضلة ، وقد دعا الله تعالى إليه ، فقال حاثاً نبيه على التعلم : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)^(٢) . وأول آيات القرآن نزولاً تحدث على القراءة والكتابة والتعليم : (اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)^(٣) .

ويحث الإسلام أبنائه كذلك على تقوية الإرادة ، وذلك بالسلوك المستقيم والخلق الكريم ، والمسلم الفاضل هو صاحب الإرادة القوية ، التي تقف أمام مغريات الحياة الدنيا ، فتعف عنها وتزهد فيها ، وأقدار الرجال تتفاوت بتفاوت قوة إرادتهم ، فمن أعطى حظه منها كان إنساناً قوياً ، ومواطناً صالحاً يعيش حياته في عزة وكرامة ، هذه العزة التي كتبها الله لعباده المؤمنين حيث قال : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) . أيها المسلمون : ألا فلنحافظ على نظافتنا ، ولنحافظ على صحتنا ، ولنتذكر دائماً قول الله تعالى : (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، وَأَخْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)^(٤) ولنترقّ أسباب الأمراض ؛ فالوقاية خير من

(١) رواه الطبراني . (٢) سورة طه : ١١٤ .

(٣) سورة القلم : ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ . (٤) سورة البقرة : ١٩٥ .

العلاج ، ومن أصابه مرض من الأمراض فليأتمس له الأدوية الناجعة .
 قال رسول الله : « إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالذَّوَاءَ وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً ،
 فَتَدَاوَوْا وَلَا تَتَدَاوَوْا بِحَرَامٍ »^(١) .

وبذلك تكون أمتنا كما أراد الله خير أمة أخرجت للناس ، وتحيا في
 دنيا الناس ، عزيزة الجانب ، قوية البنيان . . .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ
 مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ ، اخْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِزْ
 بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ
 كَذَا وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنْ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ »^(٢) .
 وقال : « تَخَلَّلُوا فَإِنَّهُ نَظَافَةٌ ، وَالنَّظَافَةُ تَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ ، وَالْإِيمَانُ مَعَ
 صَاحِبِهِ فِي الْجَنَّةِ »^(٣) .

(٢) رواه مسلم .

(١) رواه أبو داود .

(٣) رواه الطبراني .

الحياء

الحمد لله خلق الإنسان كأحسن خلقه ، وهده الصراط المستقيم . وأشهد أن لا إله إلا الله جملة بالحياء ، وزانه بالخلق الكريم . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وأثنى عليه في قوله : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد :

فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقاً ، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ »^(١) وفي رواية أخرى : « الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ ، وَالْيَدَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ »^(٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قُرْنَاءُ جَمِيعاً ، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ »^(٣) .

أيها المسلمون ؛ لقد جاء الإسلام داعياً إلى الفضيلة ، آخذاً الناس بكل ما يوثق عرى المودة والمحبة فيما بينهم ، كما أيقظ فيهم المشاعر ، وأثار منهم البصائر ، فكانوا في كل شأنهم ذاكرين الله خالقهم ، حتى استقاموا على الجادة ، وسلكوا أقوم طريق ، وعاشوا في الدنيا كرماء ، تظلمهم راية الإيمان ، وتحوطهم عناية الرحمن كل ذلك كان ثمرة التخلق بما جاءت به تعاليم هذا الدين ، ودعت إليه سنة أكرم النبيين ، ولقد كان من أعظم تلك الفضائل وأقواها أثراً في سلوك المسلم خلق الحياء ، ذلك الخلق الذي يثمر في صاحبه الكمال في كل شأنه ، ويضفي عليه من المهابة ما يسمو به عن التورط فيما

(١) رواه مالك وابن ماجه من حديث ابن عباس . (٢) رواه أحمد والترمذي .

(٣) رواه الحاكم .

يعاب ، ذلك الخلق الذى يحجب إلى صاحبه الطاعة والتقوى والاستقامة ، ويقف به عند حدود الله لا يتعداها ، ويبغض إليه الكفر والفسوق والعصيان ، من أجل ذلك كان الحياء خيراً كله ، وكان رأس الفضائل وقرين الإيمان ، قال صلى الله عليه وسلم : « الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ » ^(١) ، وفى رواية أخرى : « الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَذْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » ^(٢) .

ولقد جاء فى الحكم : من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه ، وكفى به خيراً أن يكون على الخير دليلاً ، وكفى باللقحة والبذاء شراً أن يكونا إلى الشر سبيلاً . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما كان الفحش فى شيء إلا شانه ، وما كان الحياء فى شيء إلا زانه » ^(٣) . نعم ؛ فخلق الحياء فى الذروة من مكارم الأخلاق ، إنه فى النعمة شكر ، وفى المحنة تسليم وصبر ، وفى القضاء إنصاف وعدل ، ومع الوالدين والأرحام صلة وبر ، وفى معاملة الضعفاء والأرامل والأيتام عطف ورحمة ورفق . إنه فى الودائع أمانة ورعاية ، وفى الرجال جمال وزينة ، وفى النساء عفة وطاعة وطهارة ، والمسلم الحيى إذا زل فهو التائب والنادم لما يرى من حق الله عليه . وإذا وفق لخير أدرك أنه بتوقيقه . فهو المتواضع الخاشع . لأنه يرى الله فى كل أمره . يراه فى النعمة كما يراه فى المحنة . يراه فى المنع والعطاء وفى السراء والضراء . إنه شجاع فى مواجهة خصمه لأنه يحب لله ويكره لله . ويرى أن الخير فيما يختاره ، فهو الذى يخلق ما يشاء ويختار . لا يخشى فى الحق حين يواجه عدوه إلا مولاه . لا يهرب ظلماً ولا يخشى ضيماً . فلن يصيبه إلا ما قدره وقضاه . يدفعه حياؤه إلى البذل والتضحية والجود والسخاء ، مؤمناً بأن

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه البخارى .

التراجع في هذا المضمار خلق يجافي الإيمان ، ولا يرضى به الشرفاء الأوفياء . أولئك الذين آثروا ما عند الله على ما بأيديهم فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . وليس لمن سلب الحياة صاد عن قبيح ولا زاجر عن محذور . فهو يقدم على ما يشاء ، ويأقن ما يهوى . روى شعبة عن منصور عن أبي منصور قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى يا ابن آدم إذا لم تستح فاصنع ما شئت » . وليس هذا القول إغراء بالمعاصي ، ولكن المعنى أن من لم يستح دعاه ترك الحياة إلى أن يعمل ما يشاء لا يردعه عنه رادع . فليستح المرء فإن الحياة بمنعه .

فأما حيائه من الناس فإنه يكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح . ففي الأثر : « من تقوى الله اتقاء الناس » ، وهذا النوع من الحياء قد يكون من كمال المروءة وحب الثناء فمن لا يستحي من الناس إنسان قد فقد مروءته ، وألقى وراءه ظهرياً كرامته . ويرحم الله القائل :

إذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالقاً وتستح مخلوقاً فما شئت فاصنع

وأما حياء المرء من نفسه فيكون بالعفة عن المحرمات والتخلق بالمكارم في الخلوات . ولقد دعا قوم رجلاً يألف عشرتهم فلم يجبههم . وقال : إني دخلت البارحة في الأربعين وأنا أستحي من شيء ومن عمل في السر عملاً يستحي منه في العلانية . فليس لنفسه عنده قدر أي أنه أهدر كرامته بنفسه

أيها المسلمون :

إن الحياء كما يكون من الناس يكون من الله عز وجل . ويكون من الإنسان نفسه ، وأعلى درجاته ما كان الباعث عليه مراقبة الله وخشيته ، لعلمه أنه لا تخفى عليه من أمره خافية : (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي

الْصُّدُورُ^(١) ، فهو ملتزم طريق التقوى والطاعة ، لا يفقده ربه حيث أمره ، ولا يراه حيث نهاه ، إذا ذكر الله خشيت منه الجوارح ، ورق الفؤاد ، واستجابت لطاعة ربها الأعضاء . قال صلى الله عليه وسلم : « اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ . قُلْنَا : إِنَّا لَنَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، قَالَ : لَيْسَ كَذَلِكَ ، وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى ، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَتَذْكُرَ الْمَوْتَ وَالْبَلَى ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَآثَرَ الْآخِرَةِ عَلَى الْأَوَّلَى . مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ »^(٢) .

والحياء حين يكون فيما يدعو إليه الدين ، ويوافق هدى سيد النبيين فهو خير وحسن ، وإذا كان على غير ذلك فهو على الفرد والأمة شر ومحنة ، فالحياء الذى يدفع إلى الإحجام عن السؤال عما تجهل مذموم ، قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »^(٣) ، والسيدة عائشة رضى الله عنها تقول : « نِعَمَ النِّسَاءِ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْنَهُنَّ الْحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ »^(٤) ، والقعود عن الأمر بالمعروف حياء وخجلا لا يقره الدين ، ولا يتفق وما ينشد من خير لأمة الإسلام ، قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ »^(٥) .

أيها المسلمون :

إذا كان الحياء خلق الإسلام فما أجمل أن نتخلق به ، وأن يكون لنا منه الزاد الذى نواجه به الأعاصير التى تكاد تعصف بكل القيم والمبادئ ،

(٢) رواه الترمذى والطبرانى .

(٤) رواه البخارى وغيره .

(١) سورة غافر : ١٩ .

(٣) رواه البخارى .

(٥) رواه الترمذى وابن ماجه .

وأن يكون شعارنا في دنيا الناس التي تموج بالفتن ، والحافز القوى على رفع لواء الحق والتسامي عن السير في ركب الباطل ، والانحراف مع الهوى ، ما أجمل أن يكون لنا من الحياء السياج الذي يحفظ على المسلم نور الإيمان ، ويلبسه ثوب التقى والطهر والعفاف ، ويكون به بين الناس مبعث نور ، ومصدر بر ، ومنار هدى تتميز به شخصيته ، وتظهر من خلاله ملامح عزته واستقلاله وكرامته . عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعه فإن الحياء من الإيمان^(١) وقال صلى الله عليه وسلم : « إن لكل دين خلقاً وخلق الإسلام الحياء »^(٢) .

إن الذين يتنكرون لدينهم ، وما يدعوا إليه من مكرمات وتقاليدهم وما تحم عليهم من التزامات ، إنما هم جماعة أشربوا في قلوبهم التقليد لغيرهم بما يحسون في أنفسهم من الضعف والنقص ، شأنهم في ذلك شأن الطفل حين يشعر بالنقص أمام الكبار ، فينسى نفسه محاولاً محاكاتهم .

إن الشخصية الإسلامية لها سماتها ، وهي تعيش في إطار معين من الفضائل وتحيا على هدى قويم رشيد يمكن لها في دنيا الناس ، ويحفظ عليها كرامتها ، ويعلى في الأرض ذكرها ، وما تلك السمات ، وهذه الفضائل إلا آداب هذا الدين الذي استطاع به محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، أن يصنع من الأعرجي الغليظ القلب ، الحاد الطبع ، الإنسان الرحيم ، ذا الخلق الكريم الذي ملأ الدنيا بسلوكه خيراً ، وأفاء على الناس من حياته معروفاً ويراً . فعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه مالك وابن ماجه .

يا عائشة « لو كان الحياء رجلاً لكان رجلاً صالحاً ولو كان الفحش رجلاً لكان رجلاً سوءاً »^(١) .

إن هذه الشخصية الإسلامية . قد استطاعت في خضم هذه الحياة أن تحمل الدنيا على الاعتراف بها . والاستجابة لرغباتها . والاستماع لكلمتها . كما عنت الوجوه لقوتها وسلطانها . وتعلق القاصي والداني بها يقلدها . ويخطو في ركابها . وشهد في كثير من مجالات الحياة بفضلها . والإسلام ينص على أولئك الذين يتجاهلون كل مالهم من مبادئٍ وقيم . ويتنكرون لدينهم وتقاليدهم وعاداتهم ، ويهملون أنفسهم لتدوب في غيرها ، ممن لم يرتبطوا بأرضهم . ولم ينتحوا إلى أوطانهم . ولم يدينوا بمبادئهم ولا بمعتقداتهم جاحدين لفضل الله عليهم ، وقد وهبهم أعيناً يبصرون بها ، وقلوباً يعقلون بها ، وعقولاً يفكرون عن طريقها . إنهم بذلك ينخرطون من حيث لا يشعرون في سلك أولئك الذين يقلدون ، ولو ترى إذ يقفون بين يدي الله فيحتاجون . كما قال تعالى : (وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ غَنَّا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ)^(٢) .

وفي موضع آخر من الكتاب العزيز يصور القرآن حالهم وقد ألقى بعضهم باللائمة على الآخر فيقول : (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنْتُمْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهَدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ)^(٣) .

(٢) سورة إبراهيم : ٢١ .

(١) رواه الطبراني وغيره .

(٣) سورة سبأ ٣١ - ٣٢ - ٣٣ .

إن الحياء شعبة من شعب الإيمان ، يبعث في النفس معاني الخير ، ويضئ على الفؤاد نوراً يمشى به صاحبه في الناس ، فلا يسقط في عثرة ، ولا يقع في زلة ، ولا ينحرف عن الطريق السوى إيماناً منه بأن عين الله عنه لا تغيب ، وأنه منه قريب ، لذلك فهو يذكر قول الله عز وجل : (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)^(١) . فلا تراه ، وقد وقعت عينه على بائقة ، أو اقترب لسانه فاحشة أو موبقة ، أو أتى أمراً يغضب الله خالقه ، متأديباً في ذلك بأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها ، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه^(٢) . فما أعظم أن نتخلق بخلق الله صلى الله عليه وسلم . وننأسى بهديه وسننه . قال تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)^(٣) .

إننا بالإيمان وبالإسلام لنا شخصيتنا المتميزة ، ومقوماتنا الحية القوية ، وتقاليدها العريقة الطاهرة ، ومن الحياء ألا نتخلى عن هذه الأمجاد حتى نتعرف في الوجود مكاننا الصحيح ، ويعرف الناس لنا حقنا . فاتقوا الله عباد الله ، واذكروا أن الإيمان قرين الحياء ، وأن من لا حياء فيه لا خير فيه ، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأَوَّلَى : إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ »^(٤) .

(٢) متفق عليه .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(١) سورة الإسراء : ٣٦ .

(٣) سورة الأحزاب : ٢١ .

الإخاء

نحمد الله تبارك وتعالى ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أمرنا بالاعتصام بحبله ، وألف بين قلوبنا بفضلته ، ونشهد أن محمداً عبده ، ورسوله ، أفضل أنبيائه ، وخاتم رسله ، جمع الناس على التقوى ، وأقام أمته على روح الإخاء ، صلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، المتحابين في الله ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فيقول الحق سبحانه في كتابه الكريم : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ، فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)^(١) . صدق الله العظيم .

أيها المسلمون ؛ بدأت الحياة بفرد ، ثم خلق الله له من نفسه زوجاً ، وجعل بينهما مودة ورحمة ، نتج عنهما عمران هذه الأرض ، بتلك الأعداد الهائلة من البشر ، ذوى الألوان والأجناس والعقائد المختلفة ، ومع ذلك فهم جميعاً نتاج هذا الاجتماع بين ذكر وأنثى ، على أساس من المودة والرحمة . فنحن على هذا أبناء المودة والرحمة التي أشار إليها الله سبحانه في كثير من آيات القرآن . وقد شاءت إرادة الله أن تكون هذه المودة أساس بناء الجماعة الإنسانية ، لا تقوم بدونها ، وهي في أبسط صورها علاقة الفرد بالفرد ، من أجل حياتهما المشتركة ، ولكنها في أسمى صورها تضامن بين أفراد المجتمع الواحد ، وأخوة في سبيل بناء الوطن ، ونصرة الدين ، وإسعاد المجتمع .

(١) سورة الحجرات : ١٠ .

ولو أننا تصورنا حياة بدون علاقة بين أفرادها لكانت هذه هي البدائية والوحشية ، التي يعيشها حيوان الغاب ، بل إن هذا الحيوان يعيش في جماعات تزدود عن غاباتها ، وتحوى صغارها ، وتوفر لنفلسها الطعام والمشرب بدافع من الغريزة الحيوانية .

أما الإنسان فقد كرمه خالقه ، وكان أعظم تكريم له أنه أرسى حياته على دعائم من العقل والإحساس السامى بقيمة الحياة الاجتماعية وضرورتها ، فحيثما وجد الإنسان وجدت العلاقات الإنسانية ، ووجدت الحياة الاجتماعية . ثم إن الله سبحانه حين شاء للإنسان أن يبلغ كماله ، وأن يصل إلى نصجه المقدور أهبط عليه روحه ، بوساطة أنبيائه ، فحملوا إليه من التعاليم التي أكدت عليها الأديان جميعاً : الأخوة بين بنى الإنسان عامة ، والأخوة بين المؤمنين خاصة ، والتحذير من كل ما يوهن هذه العلاقة الربانية بين أبناء الدين الواحد ، والدعوة إلى إصلاح ما بين المتنافرين والمتخاصمين والمختلفين حتى تشأكد الأخوة بين جميع المؤمنين ، وتقوى بها دعائم المجتمع .

وكذلك كان حديث الحق سبحانه عن الأخوة إخباراً بما ينبغى أن يكون على أنه كائن فعلاً : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » فهذا أمر مستقر ، لا يكون بدونه إيمان المؤمنين ، لأنهم حين آمنوا بربهم توحدت وجهتهم ، واجتمعت قلوبهم ، ومحال أن تتنافر قلوب اجتمعت على الإيمان بالله ، وعمرها حب الله ، فإن للإيمان جاذبية تدعو أصحابها إلى التقارب والتعاطف ، والتساند والتساعد ، وهذا هو المقصود بقوله سبحانه في محكم كتابه : (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ^(١) .

هذا البناء المؤلف صنعة الله وصبغته : (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً) (١). ولذا كان تأليفه نقياً من الوهن ، بريئاً من الشك ، ومن الأنانية ، منزهاً عن الحقد والبغى بغير الحق ، حتى لنؤكد أن البشرية لم تشهد في تاريخها الطويل ، ولن تشهد جيلاً شامخاً متواضعاً كذلكم الجيل النوراني من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولذلك كان من اليسير على النبي أن يواخى بينهم عقب الهجرة إلى المدينة ، فقد جاء المهاجرون إليها ، ولا عهد لهم بها من قبل ، جاءوا إليها وليس معهم سوى إيمانهم بالله ورسوله ، أما المال والولد والوطن ، فقد هجروا ذلك كله ، وباعوه بما عند الله : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِإِئْتِنَاءٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ) (٢). فحين جمعت القرعة المهاجري على الأنصاري كان ذلك حكماً واجب النفاذ على كليهما ، أن يشارك أخاه طيبة نفسه ، في ماله وفي داره ، وفي متاعه ، بل في زوجاته إن زدن على واحدة .

وقد حدث ذلك كله على أثر تلك المؤاخاة التاريخية ، التي استحدثت أن ينزل الله في شأنها قوله : (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٣).

وتلكم هي النعمة الكبرى التي أنعم الله بها على المؤمنين ، وذكرهم بها في قوله : (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً) (٤) .

(٢) سورة التوبة : ١١١ .

(٤) سورة آل عمران : ١٠٣ .

(١) سورة البقرة : ١٣٨ .

(٣) سورة الحشر : ٩ .

كان ذلك كله من أجل أن يقوم في الأرض المجتمع المثالي المتآخي ،
الذى يحس كل فرد فيه بالانتماء إلى أسرة واحدة ، كل من فيها إخوته ،
وهي أسرة عجيبة ، لا تشتمل من صور العلاقات الأسرية على غير علاقة
الأخوة ، مهما صغر الفرد أو كبر ، وذلك ليحس الفرد على ضآلة شأنه
بالتكافؤ في مواجهة أى فرد مهما عظم ، بل في مواجهة الجماعة المسلمة
كلها : «فَدِمَةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ» ، يَسْعَى بِهَا أَذْنَاهُمْ^(١).

أيها المسلمون ؛ ولعل من أسرار الإخاء الإسلامى أن الله سبحانه قد تولاه
بنفسه ، ولم يربطه بمصالح دنيوية زائلة ، ولا رده إلى اعتبارات متغيرة
باختلاف الزمان والمكان ، وذلك ليبرز في هذا الإخاء طابع الاستمرار والخلود ،
فإن إحساس المسلم بالأخوة لا يقتصر على أبناء جيله فحسب ، وإنما يتجاوز
إلى السلف الصالح ، فيحسُّ برابطة علوية تجمعهم بهم ، وتشده إليهم ،
بل إن إحساسه ليقفز به إلى غمار المستقبل ، ليجسد له علاقته بالأجيال
القادمة في ضمير الغيب ، فيحاول لذلك أن يصنع من نفسه قدوة لمن يأتي
بعده ؛ ذلك ليكون الخلف على هدى السلف ، وهكذا يصبح تاريخ الأمة
في ماضيها وحاضرها ومستقبلها وحدة ، أو سلسلة متصلة الحقائق ، يوثق
ما بين حلقاتها أخوة هي من صنع الله ، وحب هو نعمة الله .

أيها المسلمون : من أجل هذا أمر الحق سبحانه جماعة المؤمنين أن
يجعلوا من أنفسهم جماعة متابعة ، تراقب العلاقات الاجتماعية الأخوية ،
وتوفر لها ما يلزمها من الصفاء الدائم ، والصحة التامة ، فإذا ما حدث أمر
يهدد أخوة المجتمع ، من خلاف بين أفرادها ، أو نزاع على شأن من شئون
الحياة وجب على كل فرد في المجتمع أن يهب ليصلح ما طرأ على العلاقات

الأخوية من فساد ، وبذود عنها العطب والتلف ، من أجل سلامة إيمان المؤمنين ، ومن أجل سلامة المجتمع وصيانته من الدمار ، وهكذا عقب الله سبحانه على وصف مجتمع المؤمنين بالأخوة بالأمر بالإصلاح : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)^(١).

بل لقد أمر الحق سبحانه باتخاذ إجراءات وقائية أخلاقية ، تحفظ على المؤمنين أخوتهم ، فنهى عن مقارفة أى أمر يمكن أن يوهن هذه الرابطة ، أو يضعف تلك العلاقة ، نهى عن سخرية الأخ من أخيه ، وعن التجسس على عيوب الآخرين ، وعن التشاتم ، وعن سوء الظن بالأخوة . . . وكل ذلك بعد أمره بعلاج ما يطرأ على علاقة الأخوة من عوامل الفرقة .

فقد أخذ الإسلام في منهجه التربوى بكلا الإجراءين : إجراء العلاج ، وإجراء الوقاية ، ليضمن سلامة البناء الاجتماعى .

أرايتم أيها المسلمون كيف صان الدين كيان الجماعة المسلمة ، وكيف صاغ أخوتها ، حتى ليكاد المرء يتصور هذه الجماعة بين يدي طبيب ماهر ملهم ، عرف داءها ، وحدد علاجها ، فأعطاها دواءً أساسياً ، هو الأخوة ، ووصف لها بعض المسكنات لما يمكن أن يطرأ عليها من تصدع ، وهو إصلاح ذات البين ، ثم منعها من تناول بعض الأطعمة المهلكة ، كتلك الأخلاق الفاسدة التى تعطل مفعول الدواء الأساسى ، ثم أمرها أن تتناول أطعمة خاصة تساعد على العلاج وتدنى أجل الشفاء . وأعظم هذه الأطعمة : الحب فى الله ، والاعتراف بنعمته .

كان هذا هو منهج الإسلام فى تنظيم المجتمع ، من قبل أن تعرف البشرية النظم الحديثة ، التى تجعل من المكافحين (رفاقاً) ، فالواقع أن

تعبير الإسلام عن العلاقة بالأخوة أدق وأعظم من تعبير (الرفقة) ، لأن الزمالة لا تفرض حقوقاً على الزملاء ، وإنما تفترض أن بينهم نوعاً من الصداقة السطحية يوشك أن يضيع أثره في غيبة الرفيق عن رفيقه ، أما الأخوة فلها وشيجة وقربى تربط بين المتأخيين ، دنيا وأخرى ، فالأخ - في إحساسه برقابة الله - يرضى أخاه ، موجوداً أو غائباً ، وهو يحفظه في نفسه ، وفي ماله ، وفي عرضه ، لأنه يعد ذلك واجبه الذي تفرضه الأخوة في الدين ، ولأنه سوف ينال على ذلك جزاء طيباً : (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا) (١) .

ولذلك قامت الأخوة الإسلامية على أساس من القيم الأخلاقية ، التي غنت الإسلام عن سن القوانين ، وفرض التشريعات في كثير من المواقف : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ ، وَلَا يَذْلُمُهُ ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) .

أيها المسلمون ؛ هذه هي فلسفة الإخاء في الإسلام ، واضحة الحدود ، قوية التأثير ، قادت من قبل جموع المؤمنين إلى النصر في الدنيا ، وإلى رضوان الله في الأخرى ، وهي أيضاً كفيلة أن تقودكم في مواجهة التحديات من حولكم إلى النصر الحاسم على قوى الشر والاستعمار ، كما تضمن لكم الأمن النفسى ، وثواب الله . فاتقوا الله وتمسكوا بحبال الأخوة فيما بينكم ، وأوفوا بواجباتها من أجل الدين ، ومن أجل المجتمع ومن أجل رضوان الله أولاً وآخرأ . عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ ، فَأَرَصَدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا ، فَلَمَّا

أَتَى عَلَيْهِ قَال : أَبْنَ تُرِيدُ ؟ . . قَالَ : أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ قَالَ :
 هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرَبُّهَا ؟ قَالَ : لا . . غيرَ أَنِّي أَحَبَبْتُهُ فِي اللَّهِ ،
 قَالَ : فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحَبَّبْتُهُ « (١) » .

وروى عن زَرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ : « أَتَيْنَا صَفْوَانَ بْنَ عَسَالٍ الْمُرَادِي فَقَالَ :
 أَزَائِرِينَ ؟ . . قُلْنَا : نَعَمْ ؛ فَقَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
 مَنْ زَارَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ خَاضَ فِي الرَّحْمَةِ حَتَّى يَرْجِعَ ، وَمَنْ عَادَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ
 خَاضَ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ » (٢) .

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الطبراني في الكبير .

المسلمون إخوة

الحمد لله الذى خلق آدم من تراب ، فكرّمه وعلمه ، ثم غمر الأرض بنسله ، فجعلهم إخوة ، أكرمهم عند الله أتقاهم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين . أما بعد . . . فيا عباد الله . . .

لقد ميز الله سبحانه وتعالى بنى الإنسان ، فجعلهم أرقى المخلوقات وأعلاها فى مدارج الترقى والطموح ، ومن نعمه على البشر أنه اختصهم بثلاث هبات إلهية : هى العقل والعزيمة والعاطفة .

فهم بتفكيرهم الراقى المنظم يربطون النتائج بأسبابها ، ويقىسون الغائب على الحاضر والمجهول على المعلوم ، ويجمعون فى لمحة بين ماضٍ سحيق ، وحاضر محسوس ومستقبل بعيد .

وهم بعزيمتهم يسيطرون على دوافع الإقدام والإحجام ، وعلى بواعث العمل والترك ، وعلى نوازع الرغبة والعزوف .

وهم بعواطفهم يحبون ويبغضون ، ويرحمون ويقسون ، ويفرحون ويحزنون . فينبغى أن تكون هذه النعم الثلاثة من روابط الإخاء والصفاء بين الناس . وذلكم أنهم يعقلولهم يفكرون ، فيعرفون أنهم لم يوجدوا مصادفة ولا عبثاً ، بل أوجدهم خالق حكيم سواهم على قدر ، ثم يعلمون من الأديان السماوية أنه الله سبحانه وتعالى ، وأنهم ذرية أب واحد هو آدم ، وأم واحدة هى حواء ، فهم إخوة من أصل واحد يرجعون إليه جميعاً .

وإذا كانوا بعواطفهم عرضة لأن يتحابوا ويتعادوا ، ولأن يتصافوا ويختصموا ، ولأن يتسالموا ويتحاربوا ، فإن سلطان العقل والعزيمة كفيل

بأن يحكم هذه العواطف ، فيوجهها إلى الخير لا إلى الشر ، وإلى المودة لا إلى الخصام ، وإلى الوحدة لا إلى الفرقة .

ولا قيمة لامتياز الناس على الحيوان الأعجم بنعم الفكر والعزيمة والعاطفة إن لم يقدرُوا هذه النعم قدرها ، فيتخذوها من الروابط التي توثق صلات بعضهم ببعض ، وترقى بهم إلى درجات الكمال اللائق بالإنسانية ، فإن الخير لهم في أن يتآخوا ويتعاونوا على ما يكفل لهم الحياة السعيدة ، والمعيشة الرغيدة ، والسلام والطمأنينة .

ولقد مرت بالبشر فترات تنكبوا فيها طريق الإخاء ، فاصطلوا بنيران الحروب ، وذاقوا لباس الجوع والخوف ، وقوضوا بأيديهم معالم الحضارة ، ثم لم ينجنوا من هذا كله ، إلا الأسى والندم ، والحسرة وتعويق التقدم .
أيها المسلمون :

لقد راعى الإسلام هذه المعاني ، فأقام صرحه على دعائم راسخة ، منها الإخاء بين الناس ، وترددت الدعوة إلى هذا الإخاء في كتاب الله وسنة رسول الله ، فالقرآن الكريم يعلم الناس أن الله سبحانه وتعالى خلقهم من أب واحد وأم واحدة ، ويذكرهم بأنهم إخوة وإن تباعدت أنسابهم ، وبأنهم إخوة وإن تفرقوا إلى شعوب وقبائل وعشائر ، لأن تفرعهم إلى قبائل وشعوب قانون نافذ لا مفر منه ، وهو خير لهم ، إذ يكفل للإنسانية عوامل رقيها ، ويمكنها من الانتفاع بخيرات الأرض كلها ، وذلك أنهم يتفرقون جماعات في كل البيئات ، فتتنوع وسائلهم لا ستغلال ما بها من خيرات ، وتتعدد تجاربهم وحيلهم للابتكار والدفاع عن حياتهم وما تعتمد عليه هذه الحياة .
فيزرع سكان إقليم ما لا يزرعه سكان إقليم آخر ، ويصنع أهل منطقة ما لا يصنعه سواهم ، وتتعدد التجارب والمعارف والحضارات ، وينشأ عن هذا

التعدد تبادل المنافع والخبرات ، بحكم الإخاء وبحكم الضرورات ، فيتم التعارف والتآلف والتعاون والإخاء .

وهذه الأخوة تقضى بأنّه لا فضل لجنس على جنس ، ولا للون على لون ، وبأنّه لا أثر لجاه أو ثراء أو حسب في القربى إلى الله ، فإن الأكرمين عنده هم عباده ، الحراس على المثل العالية ، من تدين وطهارة نفس وسلامة قلب وعمل صالح وخلق كريم ، وما تشمله كلمة التقوى من فضائل .

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) ^(١) وقد تكررت في القرآن الكريم حكمة التفريق إلى شعوب وأمم ، قال تعالى : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) ^(٢) . وقال سبحانه : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) ^(٣) .

أيها المسلمون : لقد دعت الأحاديث النبوية إلى هذا الإخاء ، قال عليه الصلاة والسلام : « كُلُّكُمْ لِأَدَمَ وَأَدَمٌ مِنْ تُرَابٍ ، لَا فَضْلَ لِعَرَبٍ عَلَى عَجَمِي إِلَّا بِالتَّقْوَى » .

ولما طاف النبي عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « الحمد لله الذي أذهبَ عَيْبَةَ الجاهلية وتكبرها ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ : مُؤْمِنٌ تَقَى كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنٌ عَلَى اللَّهِ ، ثم قرأ قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» .

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

(٣) سورة هود : ١١٨ و ١١٩ .

لقد وثق الإسلام صلات المسلمين خاصة بلحمة أقوى من النسب ، هي وحدة العقيدة ، بما ينشأ عنها من وجدان مشترك ، وتآلف وتعاطف ، وتعاون وإخاء ، لأن صلة الدم أو الجنس قد يمسخها فتور ، وهي أشد ما تكون قرابة ، أما وحدة العقيدة فإنها قرابة قوية دائمة متجددة ، يذكرها المسلمون وهم ينطقون ، بالشهادتين في سرهم وجهرهم ، ويذكرونها في صلاتهم وصيامهم ، وزكاتهم وحجهم ، ويذكرونها في طاعتهم لله وخضوعهم له واستعانتهم به ، ويذكرونها في كل لحظة عين ، أو خفقة قلب ، أو تردد نفس . لهذا أمرهم القرآن الكريم أن يعتصموا بوحدتهم في ظلال عقيدتهم ، وحذرهم الفرقة لأنها تقوض هذه الوحدة ، وهو في حظه على الوحدة صورها صورة تحببها إلى نفوسهم ، فساها حبل الله ، ثم امتن عليهم بنعمة من ربهم هي الألفة التي جمعتهم فصيرتهم إخوة يربطهم الحب ، والتعاون والاتحاد ، ووحدة الهدف والمصير ، بعد أن كانوا أعداء يسطو بعضهم على بعض ، ويقتل بعضهم بعضاً ، حتى لقد كادوا يتفانون ، كأنهم على حافة حفرة تلتهب ناراً ، ويوشكون أن يتردوا فيها ، لولا أن لطف الله بهم ، فأنجاهم من التردى المهلك . قال تعالى : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)^(١) . ونهاهم عن التنازع ، لأنه يصدع الوحدة ، ويضعف القوة ، ويقطع روابط الإخاء ، قال تعالى : (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)^(٢) .

أيها المسلمون . . .

لقد أكدت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الإخاء الإسلامي ، قال عليه الصلاة والسلام : « الْمُسْلِمُ لِلْمُسْلِمِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى عَضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَتْ لَهُ سَائِرُ الْأَعْضَاءِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى » .

لكن الإسلام لم يتجاهل أن المسلمين قد تغلب الأثرة بعضهم ، فبستجيبون لنزعات الخلاف ، فشرع لهم الوقاية التي تدرأ عنهم سوء العاقبة ، وهي أن يحتكموا إلى شرع الله وسنة رسول الله ، فإن هذا هو القضاء العدل ، وهو الطريق الذي يحقق الخير ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)^(١) .

وقال عز وجل : (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)^(٢) .

(١) سورة النساء : ٥٩ .

(٢) سورة الحجرات : ٩ .

الاتحاد قوة

الحمد لله ، له العزة والجبروت ، وله الملك والملكوت ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، كتب العزة لعباده المؤمنين ، ما اعتصموا بحبله ، واتبعوا هداه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، دعا أمته إلى الوحدة ، وأبلغهم أمر ربه : (وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) - اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولئك هم المفلحون .

أما بعد : فيقول الله سبحانه في كتابه الكريم : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِرِّعْمَتِهِ إِخْوَانًا)^(١) .

أيها المسلمون : هذا أمر من الله سبحانه ، يطلب إلينا فيه أن نعتصم بحبله ، وأن نتوحد حول دعوته ، وكأن علم الله سبق بأننا قد نتوانى عن الاستجابة لهذه الدعوة الكريمة ، فكان نسج الآية بطريقة تزيد معناها تأكيداً ، وتضيف إلى وحدتنا قوة .

فإن الله سبحانه أراد لنا أن نكون وحدة متماسكة ، ووضع لهذه الوحدة أساسين ربانيين لا تصلح إلا بهما .

أولهما : أن تكون وحدتنا حول كتاب الله (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ) ، فأول الأمور هو تحديد الهدف وتوحيده ، وذلك يضمن لنا الأساس المتين للوحدة ، فليس من الممكن أن تجتمع قلوب الناس على هواء . وليس من المطلوب أن

(١) سورة آل عمران : ١٠٣ .

يجتمعوا على باطل وضلال ، بل ينبغي أن يكون اجتماعهم على الحق الذى لا يأتى الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإذا توافر للوحدة المؤمنة الدستور الذى تلتقى عنده القلوب ، وتنتفى الأهواء ، فقد سلم بناؤها ، ووضح منهاجها ، واطمأن المؤمنون إلى التسليح بها ، (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)^(١) .

مثل هذه الوحدة تتوافر لها المقاييس التى تصحح تصرفات الفرد ، وتوجه سلوك الجماعة وتؤمن حياة الناس ، لأنها قائمة على أساس كتاب جمع الله فيه خيرى الدنيا والآخرة ، ونهى به عن كل شر فى الدنيا ، يودى إلى الخسارة فى الآخرة ، فهناك دائماً - حيث يحتمل الخطأ - داع إلى الصواب ، وإلى الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، هناك دائماً من يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، لأنه يرجع إلى دستور السماء فى نقد أقوال الناس وأفعالهم ، وفى محاولة إصلاحها .

وموقف المؤمن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيه حرص على أخيه المؤمن ، أن يكون عرضة يوم الحساب للوم والعقاب ، وفيه إشفاق على الجماعة المؤمنة ، أن يؤثر الانحراف على كيانها ، ويوهن قوتها ووحدتها ، وفيه رغبة صادقة فى ثواب الله ، عاجله وآجله .

وليس أعظم من ذلك تعبيراً عن إحساس الفرد بإحساس الجماعة ، واتحاد المؤمنين أينما كانوا فى هذا الإحساس ، الذى عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله :

« الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا »^(٢) ، وفى قوله : « تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادُّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى عَضْوُ

تداعى له سائرُ جَسَدِهِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى «^(١) فهذا هو الأساس الأول في مقومات الوحدة في نظر الإسلام .

والثاني : أن تقوم الوحدة على أساس التثام جميع أعضاء المجتمع المسلم ، بحيث لا يتخلف عنها فرد واحد ، ولا يشذ صوت مهما يكن ، وذلك المعنى هو ما حرصت الآية على بيانه في قوله تعالى : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً) ، وقد كان مما يؤدي المعنى في جملته قوله مثلاً : (واعتصموا بحبل الله) لكنه أكد شمول هذا الاعتصام بقوله : (جميعاً) ، وتلك هي الصورة التي أرادها سبحانه لوحدة هذه الأمة ، وحدة شاملة تضم كل فرد ، لا فضل فيها لأحد إلا بالتقوى ، ولا ميزة لأحد إلا أن يزيد على الآخرين في البذل والتضحية ، وإيثار ما عند الله على ما عند الناس ، فالأمة كلها متوحدة الصف بأمر الله وإرادته ، مجتمعة على هدف واحد ، هو الله ، الذي تؤمن به وتتقيه ، وصدق الله العظيم : (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)^(٢) فقد جمعت الآية تعبيراً صريحاً آخر عن وحدة الهدف ووحدة الصف ، في منطق الدعوة المحمدية .

أيها المسلمون : ليس هذا فحسب هو كل ما دعا به الإسلام إلى الوحدة ، فلقد أكثر القرآن من تصوير الوحدة في مواضع مختلفة .

فإن الله سبحانه يحب وحدة الصف في مواجهة الخطر : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُشْيَانٌ مَرُصُوصٌ)^(٣) ، وهذه ظروف الحرب .

كما أنه حبيب إلينا أن نصرف جهودنا متوحدة متعاونة في سبيل الخير :

(٢) سورة الأنبياء : ٩٢ .

(١) رواه البخارى .

(٣) سورة الصف : ٤ .

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) ^(١) ، وهذه ظروف السلم .

والله سبحانه يبغض إلينا أن نختلف ، لأن الاختلاف أول الوهن ، وباب الفشل والضياع ، والفاسل الضائع لا وزن له في هذه الدنيا ، ولا مكانة له في الآخرة : (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) ^(٢) ويقول الرسول : « لَا تَقَاطَعُوا وَلَا تَدَابِرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا ، وكونوا عباد الله إخواناً » ^(٣) ، بل إنه ليحذرنا من أن نسير على نهج المتفرقين ، أو أن نقتدى بهم ، لأنه أعد لهم أسوأ العقاب عنده جزاء تفرقهم : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) ^(٤) .

فإذا مضينا في طريق الفرقة ، وأضعنا هدف الأمة ، وتقطعنا فرقاً وأحزاباً ، وتمزقنا رؤساء وأذئاباً فإن أول إجراء فرضه الله علينا هو براءة الرسول صلى الله عليه وسلم منا ، وانفصاله عنا ، وتخليه عن جماعتنا ، لأن الأمة التي دعا إليها ، وأرادها لحمل دعوته لا تعرف الفرقة ، وإنما هي أمة واحدة ، ربها واحد ، وكتابها واحد ، وصفها واحد . استمعوا إلى قوله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) ^(٥) .

وليس هناك أشد من هذا الجزاء ، ولا أعنف من ذلك التهيب ، وهو نذير بين يدي الأمة يدعوها دائماً أن ترحد صفوفها ، وأن تتناسى أحقادها ،

(١) سورة المائدة : ٢ .

(٢) سورة الأنفال : ٤٦ .

(٣) رواه البخارى .

(٤) سورة آل عمران : ١٠٥ .

(٥) سورة الأنعام : ١٥٩ .

ودواعى اختلافها وفرقتها ، لأن ذلك هو درع التقدم ، وحصن الأمان .
أيها المسلمون :

لقد عاشت هذه الأمة فترة الوحدة على عهد محمد صلى الله عليه وسلم ،
حين ربى الجيل الأول من الصحابة تربية التوحيد الخالص ، المنزه عن شرك
العقيدة ، وشبهات النفاق ، فكان منهم أوثك الفاتحون الأبطال ، الذين
سار النصر في ركابهم ، وهزموا أعظم قادة الحرب ، من أبناء فارس والروم ،
لم يدخلوا آنذاك كلية يتعلمون فيها فنون القتال ، ولكنهم تلقوا علم
القتال والانتصار على يد المعلم الأول صلى الله عليه وسلم ، فكان أول درس
لهم أن يقفوا في صفوف موحدة ، متساوين كالبنيان يشد بعضه بعضاً ،
ليؤدوا لله فريضة الصلاة ، خمس مرات في اليوم والليلة ، في جماعة منتظمة
لا يتخلف عنها أحد .

وظلت هذه الروح الواحدة سائدة بين المسلمين ، فانساحوا في أقطار
الأرض يعلن كلمة الله ، ويرفعون لواء دعوته ، حتى بلغوا بفتوحاتهم وهدايتهم
أقصى ما كان معروفاً في ذلك الوقت من بلاد الله الواسعة .

فلما تفرقت كلمة الأجيال ، وتمزقت وحدتهم عاشوا تجربة أخرى ،
ولكنها مريرة قاسية ، كانوا في الأندلس قد عاشوا ثمانية قرون ، وشادوا للدين
حضارة شامخة ، ولكنهم لم يرعوها حق رعايتها ، وتنازعوا على الإمارة
والسلطان ، واستعان الأخ على أخيه بعدوهما كليهما ، فتسلل أعداء الله إلى
صفوف المسلمين المتفرقين فمزقوها ، وطرد المسلمون من الأندلس ، بعد أن
أمن الأعداء فيهم قتلاً ، وصلباً ، وحرقاً ، وانتهاكاً للأعراض والمقدسات ،
على صورة لم يحدث لها مثيل في تاريخ البشر .

فالتجربتان ماثلتان في وجداننا . تحركان فينا كل همة ، وتدفعان
خطب الجمعة

كل طمسوح إلى استعادة المجد الغابر ، وتحقيق الوحدة الربانية على ما أمر الله .

أيها المسلمون : قد يتصور بعض الناس أن من الممكن تحقيق هذه الوحدة بعيداً عن الدين ، أو أن من الممكن تحقيق النصر على الأعداء بنوع من الاتحاد بعيد عن الدين ، وأؤكد لكم أن ذلك لن يكون من ورائه إلا الشر والهزيمة . لقد أراد الله لهذه الأمة شرف الإسلام ، وجعله صميم حياتها ، وأساس وجودها ، وربط بين مجدها ومجده ، كما وصل وجودها بوجوده . فالأمة جسد روحه الدين ، وبناء أساسه الإسلام ، قولاً وعملاً ، شرعاً ودولة ، عبادة وسلوكاً ، ومحال أن ننتصر بضياغ الإسلام ، على حين يتسلح الأعداء بدينهم ، ويواجهوننا بضلالتهم ، فإسرائيل جسر الاستعمار ترتبط بدينها العنصرى ، وتسمى باسم نبيها يعقوب ، الذى هو إسرائيل ، ونحن فى مواجهة هذا العدو لا بد من أن نحشد أكبر قدر من الطاقة الروحية ، لشحذ الهمم ، ودعم الصفوف ، وتجميع الطاقات ، وتنقية الجهود .

لا بد من أن نعود إلى الدين الذى دعانا إلى الوحدة النقية الصافية ، لنربي أبنائنا وبناتنا على هداه ، ونكبح شهواتنا بقوانينه ، وننظم عاداتنا وتقاليدها بآياته وبياناته ، ونهذب سلوكنا بأوامره ونواهيه .

فأول الأسلحة وأمضاها لمواجهة الخطر هو أن نعود إلى الله ، وأن نعتصم بحبله ، وأن نكون أفضل من أعدائنا أخلاقاً ، فلا يكون بين صفوفنا الشاب الرقيق ، أو المستهتر ، ولا الفتاة الخلية ، أو المسترجلة ، ولا أصحاب التقاليع ، ومرترقة الجنس ، وتجار الأعراض ، وعبيد المال ، ومحترفو النفاق والوصولية .

لا مفر أيها المسلمون من إعلان الحرب على هذا كله ، بكل صراحة ،
وبكل حزم ، لتعود إلى شبابنا قيم الحق والشجاعة والتفصحية ، والجد والرجولة
والإيمان . ويومئذ لن يقدر علينا العدو أبداً ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر
الله :

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي
يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) ^(١) .

عن أبي شريح الخزاعي قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال : أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ قالوا : بلى ،
قال : إن هذا القرآن طرّفه بيدي الله ، وطرّفه بأيديكم ، فتمسّكوا به فإنكم
لن تضلّوا ولن تهلكوا بعده أبداً » ^(٢) .

عزة النفس

الحمد لله ، القوى القادر ، العزيز الحكيم ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، كتب لنفسه العزة ، وجعلها من أسمائه الحسنی ، وغمر عباده بفيض من عزته ، فاعتزوا بنسبتهم إليه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إمام الأعزة المتقين ، وقائد الغر المحجلين ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه والتابعين .

أما بعد . . . فيقول الله سبحانه في كتابه الكريم . . . (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ) ^(١) ، ويقول في آية أخرى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً) ^(٢) .

أيها المسلمون . . .

هذا هو حديث رب العزة عن نفسه ، وعن أحبائه ، وصف نفسه بالعزة ، فهو العزيز الذى لا يقهر ، ووصف رسوله بالعزة ، ووصف بها كذلك المؤمنين ، وسياق الآيتين يوحى بأن عزة الرسول والمؤمنين هى من عزة الله ، فهم حين اعتزوا به أعزهم ، ورفع شأنهم فى العالمين .

والحق أن الإسلام قد قام فى نفوس أصحابه على أساس متين ، هو إيمانهم بالله وحده ، لا شريك له ، فهم يعبدونه ، ويخضعون لجبروته ، ويدلون لسلطانه ، وبهذه العبودية يعتزون على سائر المخلوقات ، فكلما بالغ المؤمن فى الخضوع لله ولعظمته ازداد ثقة بنفسه ، ومعرفة بقدره ، لأن صلته حينئذ تكون وثيقة بإله الكون وخالقه ، فليس للمخلوقات مهما عظمت

(١) سورة المنافقون : ٨ .

(٢) سورة فاطر : ١٠ .

سوى مكان الخضوع والذل لقدرة الله ، وصدق الله العظيم . . (وإن من شئ إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم) (١) .

فالتوحيد فى الحقيقة يعنى تحرير النفس الإنسانية من طبائع الخنوع والاستكانة ، والذل والمهانة ، ودعمها بالفضائل العليا ، وتزويدها بأخلاق المقاومة والمصابرة ، ومعانى الكفاح والتضحية ، وتلك كلها قيم نبيلة ، نابعة من موقف واحد ، هو موقف التوحيد الخالص لذات الله ذى الجلال والإكرام .

لذلك نجد المؤمن حين يعرف ربه يرفض الخضوع لما سواه ، فلا إله غيره ، ولا معبود بحق إلا هو ، ومن هنا تنبع أخلاق هذا المؤمن ، وأولها عزة نفسه ، التى تلازمه فى كل أحواله . غنياً كان أو فقيراً ، قوياً كان أو ضعيفاً ، سيداً أو مسوداً . كان هذا هو شأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رباهم معلمهم الكريم على الخلق الرفيع ، وأخذ عليهم العهد أن يتمسكوا بعزة أنفسهم ، وألا يذلوا لمخلوق مهما تكن الظروف ، قاسية أو هينة ، فالهمم دائماً هو الحفاظ على المبدأ الأخلاقى .

فعن أبى عبد الرحمن عوف بن مالك رضى الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تباعون رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ؟ .. فبسطنا أيدينا وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام نبايعك ؟ . . قال : أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَالصَّلَاةَ الْخَمْسَ ، وَتُطِيعُوا ، وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ - يقول أبو عبد الرحمن : فلقد رأيت أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه (٢) .

أرأيتم أيها المسلمون إلى عناصر البيعة المحمدية ؟ . . لقد حددها النبي فى الإيمان بالله الذى يحرر النفس من الشرك ، وفى أداء الصلوات التى هى

مظهر العبودية للخالق المقتدر ، وفي الطاعة التي لا تخالف عن أمر من أوامر الله ، وثمرة ذلك كله أن يصون المؤمن نفسه عن سؤال الناس .

ثم أرايتم إلى التزام الصحابة بشرط البيعة . . ؟ لقد بالغوا في ذلك حتى كان أحدهم يرفض أن يستعين بأحد ليناوله سوطه إذا سقط من يده ، تصوناً عن احتمال نقض البيعة ، حتى في هذا الموقف البسيط .

إن الملتزمين بأدب الإسلام ، المتمسكين بأوامره ، المعتزين بعزة الله هم الذين لا يحسون فقراً حتى لو كانوا فقراء ، ولا يحسون ضعفاً حتى لو كانوا ضعفاء ، وإنما يزينهم ويكملهم دائماً التعفف والقناعة ، والرضا بقدر الله ، والإيمان بسلطان المقادير على الأشياء والأنفس ، وهم الذين أمرنا الله سبحانه أن نقصدهم في دورهم ، وأن نبهث عن أحوالهم ، وأن نقوم على شئونهم فنعين فقيرهم ، ونجبر كسيرهم ، ولقد وصفهم الله أجمل وصف في قوله سبحانه : (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ ، يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً) (١) .

ومثل هذا الخلق الرفيع بحاجة إلى رصيد كبير من الصبر والتحمل ، وتحمل الظروف القاسية دون ضراعة لأحد إلا الله ، ولعل في موقف إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين أُلقي في النار ما يجسم هذا الخلق ، « قال له جبريل . . ألك حاجة ؟ . . فرد عليه إبراهيم : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فعلمه بحالي حسبي من سؤالي » ، إنه منطق الإيمان يتدفق على ألسنة الأنبياء ، دعاة الإيمان .

ولقد تعلم الصحابة رضوان الله عليهم هذا الخلق ، فكانت منهم نماذج

شريفة ، من أمثال حكيم بن حزام ، الذى سأل النبي أن يعطيه فأعطاه ما يرضيه ثم أوصاه ألا يسأل ، فأقسم حكيم ألا يسأل أحداً بعد النبي حتى يفارق الدنيا . فكان أبو بكر - على جلال قدره - يدعوه ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً ، ثم إن عمر رضى الله عنه دعاه ليعطيه فيأبى أن يقبله ، فقال : يا معشر المسلمين . . أشهدكم على حكيم ، أنى أعرض عليه حقه الذى قسم الله له فى هذا النىء فيأبى أن يأخذه ، « ولم يسأل حكيم أحداً من الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم حتى توفى رضى الله عنه » (١) .
أيها المسلمون :

كثير من الناس يظنون أن عزة النفس لا تاتى إلا بعد شيع البطن ، وامتلاء الجيب . فالغنى هو الذى يملك أن يكون عزيزاً ، أما الفقير فلا يملك إلا أن يذل ويخضع .

ولقد فشئت هذه القيم الساقطة فى مجتمعنا المعاصر ، وفشا معها فى الأغنياء الطغيان والتكبر ، كما فشا معها فى الفقراء الخنوع والمداهنة ، ولملتق والنفاق .

وهذا الانقسام فى المجتمع إلى طبقة تحوز الغنى والطغيان ، وأخرى تنظر بالفقر والهوان هو الذى يؤدى دائماً إلى صراع الطبقات ، ثم إلى دمار إحداهما ، أو كليهما : بسبب التحارب والتباغض الكامن فى الأنفس الضعيفة ، وهى نزعات شريرة استغلتها المذاهب المادية . لقد حارب الإسلام هذه النزعات المنحرفة ، التى تجعل التفاضل بين العباد على أساس المادة الفانية ، والأعراض الزائلة ، وندد القرآن بها حين قال سبحانه : (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ إِنَّهُ رَآهُ اسْتَغْنَى ، إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعَى) (٢) .

وجعل أساس المفاضلة بين الخلق تقواهم وحرصهم على الأخلاق الكريمة :
(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) ^(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه : «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ» ^(٢).

هذه القيم الأخلاقية التي جعلها الإسلام أساس المفاضلة بين الناس هي التي جعلت من بلال العبد الحبشي مؤمناً شامخ النفس ، كما أسقطت أبا جهل الغني المشرك في الحضيض ، وهي أيضاً التي هونت الدنيا على أغنياء المسلمين ، فجعلت الواحد منهم يخرج من أهله وماله ، مضحياً بهما في سبيل الله . وهي كذلك التي زرعت في نفس المؤمن توازناً أخلاقياً في كل موقف ، فهو مع أخيه المؤمن متواضع ذو حياء ، وهو مع الكافر شديد معتز بالله ، وهو في كلتا الحالين المؤمن الذي لم تتغير حقيقة نفسه ، حين تواضع أو حين تكبر ، لأن التواضع والتكبر هنا مبعثهما الإيمان بالله ، العزيز الجبار المتكبر ، الذي قال في محكم كتابه : (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) ^(٣).

أيها المسلمون . . .

لقد عاش نبيكم عزيز النفس ، عفيف القصد ، شريف المسلك ، في كل خطوة خطاها ، وفي كل لحظة عاشها ، لم يحزن الجبين إلا لله ، ولم يضع حاجته إلا بين يدي ربه . وجاء بعده صحابته يطلبون الأشياء بعزة النفوس ، لأن الأمور تجري بالمقادير ، وقد حفظوا ما علمهم نبيهم صلى الله

(٢) رواه البخاري .

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

(٣) سورة المائدة : ٥٤ .

عليه وسلم حين قال فيما يرويه سهل بن سعد رضى الله عنه : « جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا مُحَمَّدُ ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ ، وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ ، وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ »^(١) .

فاتقوا الله أيها المسلمون ، وتآدبوا بأدب دينكم الحنيف ، وتخلّقوا بأخلاقه ، التي أرادها لكم عزاً ومنعة ، ومجداً وسودداً ، واعلموا أنكم لم تهونوا على أعدائكم إلا حين هان عليكم دينكم ، وأن آخركم ان يصلح إلا بما صلح به أولكم .

لن تستطيع شريعة غير شريعة الإيمان أن تحل مشكلاتكم ، أو تقرر الأمن والعز في بلادكم ، لأنكم أمة محمد ، اختاركم الله من بين خلقه لتكونوا شهداء على الناس ، فأوفوا بحق هذه الشهادة ، بالرجوع إلى كتاب ربكم ، وسنة نبيكم ، وبالتخلي عما سواهما مما يروج له المنحرفون ، وأصحاب المذاهب الضالة . واذكروا دائماً دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا »^(٢) .

(١) رواه الطبراني .

(٢) رواه مسلم من رواية زيد بن أرقم رضى الله عنه .

الرحمة

الحمد لله الذى ليس لفضله حد ، ولا لنعمائه عد ، سبقت رحمته غضبه ، ووسعت مغفرته خلقه : (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)^(١) . وأشهد أن لا إله إلا الله ذو الجلال والإكرام ، والطول والإنعام ، وأشهد أن محمداً رسول الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأبر بهم من الوالد والولد : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)^(٢) . اللهم صل على سيدنا محمد وآله وأصحابه والتابعين .

أما بعد : فإن الرحمة خلق يدل على نبل الطبع ، وسمو الروح ، ونقاء المعدن ، وكلما زادت معاني الرحمة فى إنسان دل ذلك على اكتمال شمائله ، ونضج فضائله ، وقد بلغت الرحمة نسقها الأعلى فى شخصية النبى صلى الله عليه وسلم الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، فكانت سيرته مع الناس نموذجاً للرقّة واللطف ، والسماحة والعطف : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَفُتُّوا مِنْ حَوْلِكَ)^(٣) . وقد جاء فى حديثه الشريف : « إِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى الْقَاسِي الْقَلْبَ »^(٤) . وقد أمر الإسلام بالتراحم العام ، وجعله من دلائل الإيمان الكامل ، فالمسلم يلتقى الناس قاطبة وفى قلبه لهم عطف مذخور ، وبر مكنون ، فهو يوسع لهم ، ويخفف عنهم جهد ما يستطيع ، قال رسول الله : « لَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَرْحَمُوا » ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنَّا رَحِيمٌ ، قَالَ : إِنَّهُ لَيْسَ بِرَحْمَةٍ أَحَدِكُمْ صَاحِبُهُ ، وَلَكِنَّهَا رَحْمَةٌ عَامَةٌ^(٥) .

(٢) سورة التوبة : ١٢٨ .

(١) سورة غافر : ٧

(٣) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٤) رواه الترمذى .

(٥) رواه الطبرانى .

أجل ، فإن الرجل قد يهش لأصدقائه حين يلقاهم ، وقد يرق لأولاده حين يراهم ، وذلك أمر يشيع بين الكثير ، بيد أن المفروض في المؤمن أن تكون دائرة رحمته أوسع ، فهو يبدي بشاشته ، ويظهر مودته ورحمته لعامة من يلتقى . . .

وقد جاءت الأحاديث تنزى ، حاثّة على هذه الرحمة الشاملة . فقال رسول الله : « مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ »^(١). زاد في رواية : « وَمَنْ لَا يَغْفِرُ لَا يُغْفَرَ لَهُ » ، وقال : « مَنْ لَا يَرْحَمِ مَنْ فِي الْأَرْضِ لَا يَرْحَمُهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ »^(٢). وقال : « طوبى لمن تواضع في غير منقصة . وذل في نفسه من غير مسألة ، وأنفق مالا جمعه في غير معصية ، ورحم أهل الذل والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة »^(٣). والذلة في غير مسكنة تعنى السكينة للمؤمنين والليونة معهم . وقد وصف الله المجتمع المسلم أنه متماسك بهذا العطف المتبادل فقال عن أهله : (أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ)^(٤) . وقال : (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)^(٥).

وقد تسأل : ما معنى ذكر الشدة في سياق الحديث عن الرحمة ؟ والحق أن الإسلام يوصى بالرحمة العامة لا يستثنى منها إنساناً ولا دابة ولا طيراً . والنصوص التي سلفت تؤيد هذا الشمول . بيد أن هناك من الناس والدواب من يكون مصدر خطر على غيره ، ومثار رعب وفزع ، فيكون من رعاية المصلحة العامة للجماعة كلها أن يحبس شره . ويحاصر ضرره ، وقد تكون الشدة معه رحمة به ، وكذلك تقويماً لعوجه .

والإسلام رسالة خير وسلام وعطف على البشر كلهم . وقد قال الله لرسوله . (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)^(٦) . وسور القرآن الكريم مفتوحة

(١) رواه البخارى . (٢) رواه الطبرانى . (٣) رواه الطبرانى .
(٤) سورة المائدة : ٥٤ . (٥) سورة الفتح : ٣٩ . (٦) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

ب (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءاً وَاحِداً ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَنْرَاحِمُ الْخَلَائِقُ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ »^(١).

وفيه الإسلام إلى أن هناك أقواماً مخصوصين ينبغي أن يحفظوا بأضعاف من الرحمة والرعاية .

من هؤلاء ذوو الأرحام ، والرحم مشتقة من الرحمة في مبنائها ، فيجب أن تستقيم معها في معناها . قال رسول الله : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ اللهُ تَعَالَى ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ . الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ . مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللهُ »^(٢) . وعلى المسلم أن يؤدي حقوق أقربائه وأن يقوى بالمودة الدائمة صلوات الدم القائمة . . . وأجدر الناس بجميل بره أحنُّهم عليه وأولاهم به ، وهم الوالدان ، قال تعالى : (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)^(٣)

ثم أولاده ، فعن البراء رضى الله عنه قال : « أَتَى أَبُو بَكْرٍ عَائِشَةَ وَقَدْ أَصَابَتْهَا الْحُمَّى فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتِ يَا بُنَيَّةُ ، وَقَبَّلَ خَدَّهَا »^(٤) . والمشاهد في أجلاف الناس أن عواطفهم لا تأخذ هذا الطابع من الرقة والحنو ، ففي أخلاقهم وألفاظهم جفوة مستكرهة .

عن أبي هريرة : قَبَّلَ رَسُولُ اللهِ الْحَسَنَ أَوْ الْحُسَيْنَ بْنِ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الْأَقْرَعُ ابْنُ حَابِسِ التَّمِيمِيِّ ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ : إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبِلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا قَطْ . فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ وَقَالَ : « مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ » ، وفي رواية : « أَوْ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَنْزَعَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ »^(٥) . ولا يجوز للمسلم

(٢) الشجنة : القرابة المشبكة اشتباك العروق .

(٥) سورة الإسراء : ٢٤ .

(٦) رواه البخارى .

(١) رواه البخارى .

(٣) رواه الترمذى .

(٤) رواه البخارى .

أن يوصل قلبه وبَيْتَهُ دون أَقَارِبِهِ . وَأَنْ يَبْتَ عِلَاقَتَهُمْ ، فَيَحْيَا بَعِيداً عَنْهُمْ .
لَا يُوَاسِيهِمْ فِي أَلَمٍ ، وَلَا يَسُدُّ إِلَيْهِمْ عَوْناً ، إِنْ هَذِهِ الْقَطِيعَةُ تَحْرِمُ الْإِنْسَانَ
بِرَكَّةِ اللَّهِ ، وَتَعْرِضُهُ لِسَخَطِهِ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ : « الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَةِ
تَقُولُ : يَا رَبِّ إِنِّي قُطِعْتُ ! يَا رَبِّ إِنِّي أُسِيءُ إِلَى ! يَا رَبِّ إِنِّي ظَلِمْتُ .
يَا رَبِّ ! يَا رَبِّ ! فَيُجِيبُهَا : أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ وَأَقْطَعَ مَنْ
قَطَعَكَ » (١) .

وَمَنْ تَجِبَ الرَّحْمَةُ بِهِمُ الْيَتَامَى ، فَإِنَّ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِمْ وَالْبِرَّ بِهِمْ وَكَفَالَةَ
عِيَشِهِمْ وَصِيَانَةَ مُسْتَقْبَلِهِمْ ، مِنْ أَزْكَى الْقُرْبَاتِ ، بَلْ إِنْ الْعَوَاطِفَ الْمُنْحَرِفَةَ
تَعْتَدِلُ فِي هَذَا الْمَسْلَكِ ، وَتَلْزِمُ الْجَادَةَ ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ قَسْوَةَ قَلْبِهِ ، فَقَالَ : « امْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وَأَطْعِمِ الْمَسْكِينَ » (٢) .
وَفِي رَوَايَةٍ : أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ يَشْكُو قَسْوَةَ قَلْبِهِ فَقَالَ لَهُ : « أَتَحِبُّ أَنْ يَلِينُ
قَلْبُكَ وَتَدْرِكَ حَاجَتَكَ ؟ ! ارْحَمْ الْيَتِيمَ ، وَامْسَحْ رَأْسَهُ ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ
يَلِينُ قَلْبُكَ ، وَتَدْرِكَ حَاجَتَكَ » (٣) .

وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ يَتَبَدَّلُ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الَّتِي تَضْجُ بِالْمَرْحِ الدَّائِمِ ، وَالَّتِي
تَصْبِحُ وَتَمْسِي وَهِيَ لَا تَرَى مِنَ الْحَيَاةِ غَيْرَ آفَاقِهَا الزَّاهِرَةِ ، وَنَعْمِهَا الْبَاهِرَةِ ،
وَالْمُتَرَفُونَ إِنَّمَا يَتَنَكَّرُونَ لِآلَامِ الْجُمَاهِيرِ ، لِأَنَّ الْمَلذَّاتِ الَّتِي تَيْسَّرُ لَهُمْ تَغْلَفُ
أَفْئِدَتَهُمْ ، وَتَطْمَسُ بِصَائِرِهِمْ ، فَلَا تَجْعَلُهُمْ يَشْعُرُونَ بِحَاجَةِ الْمَحْتَاجِ ، وَالْأَلَمِ
الْمُتَأَلِّمِ ، وَحُزْنِ الْمَحْزُونِ ، وَالنَّاسِ إِنَّمَا يَرْزُقُونَ الْأَفْئِدَةَ النَّبِيلَةَ ، وَالْمَشَاعِرَ الْمَرْهُفَةَ ،
عِنْدَمَا يَتَقَلَّبُونَ فِي أَحْوَالِ الْحَيَاةِ الْمَخْتَلِفَةِ ، وَيَبْلُغُونَ مَسَ السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ . .

(٣) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ .

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ .

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ .

عندئذ يحسون بالوحشة مع اليتيم ، والفقدان مع الشكلي ، وبالتعاسة مع البائس الفقير .

* * *

وتجمل الرحمة مع المرضى وذوى العاهات ؛ فإن أولئك المصابين يستقبلون الحياة بوسائل منقوصة تعجزهم عن المسير فيها ؛ وإدراك لبانتهم منها وقد عذرهم الله عز وجل ؛ فلا يجوز أن نؤاخذهم بما أعفاهم الله منه : (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ . وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذَّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا)^(١) .

والمرضى شخص قيده العاة ، ونغصه حر الداء ومر الدواء . وهو في صبره على أوجاعه قريب من الله ، تحقيق برحمته ، وإذا كان مس الشوكة يكفر من سيئات المؤمن ، فما بالك بمن برحت به الأوصاب ؛ وأذاقته أشد العذاب ؟ إن ذلك يجعله بعين الله ، ولذلك يجب أن نحاذر من الإساءة إلى المرضى ، والاستهانة براحتهم ، فإن القسوة معهم جرم غليظ .

* * *

ومن مواطن الرحمة أن نحسن معاملة الخدم ، وأن نفرق معهم فيما نكلفهم من أعمال ، وأن نتجاوز عن هفواتهم ، وألا نحس سطوة التصرف فيهم فنستهين بتسخيرهم ، فإن الله بين لنا أنه إذا ملك أحدنا شيئاً فاستبد به وأساء إليه ، سلبه ما ملك ، وأعد له سوء المنقلب .

عن أبي مسعود البدرى قال : كنت أضرب غلاماً لى بالسوط . فسمعت

صوتاً من خلقى يقول : اعلم أبا مسعود . فلم أفهم الصوت من الغضب ، فلما دنا منى إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا هو يقول : « اعلم أبا مسعود أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغَلَامِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ خَرُّ لِيُوجِبَ اللَّهُ تَعَالَى . فَقَالَ : أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلْفَحْتِكَ النَّارُ »^(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حُسْنُ الْمَلَكََةِ نَمَاءٌ وَسُوءُ الْخُلُقِ شُومٌ »^(٢) ، وجاءه رجل يسأله : كم أعفو عن الخادم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً » . إن هناك نساء ورجالا ينتهزون فرصة ضعف الخدم فيوقعون بهم ألوان الأذى ، وقد رهب الإسلام من هذه الفظاظ ، وتوعد عليها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ضَرَبَ سَوْطاً ظُلْمًا اقْتَصَّ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(٣) .

* * *

ومن الرحمة المطلوبة الرفق بالحيوان . رأى عمر رضى الله عنه رجلاً يسحب شاة برجلها لينذبحها ، فقام : وملك ، قُدَّها إلى الموت قوداً جميلاً .

وقال رجل : يا رسول الله إني لأرحم الشاة أن أذبحها ، فقال : « إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللَّهُ »^(٤) . والإسلام شديد المأخذه لمن تقسو قلوبهم على الحيوان ، ويستهيئون بآلامه ، وقد بين أن الإنسان على عظم قدره يدخل النار في إساءة يرتكبها مع دابة عجماء .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا

(٢) رواه أبو داود .

(٤) رواه الحاكم .

(١) رواه مسلم .

(٣) رواه البزار .

فَلَمْ تُطْعَمَهَا ، وَلَمْ تَدْعَهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ «^(١) . كَمَا بَيْنَ أَنْ
كِبَائِرَ الْمَعَاصِي تَمْحُوهَا نَزْعَةُ رَحْمَةِ تَغْمِرُ الْقَلْبَ ، وَلَوْ بِإِزَاءِ كَلْبٍ !

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ
عَلَيْهِ الْعَطَشُ . فَوَجَدَ بَيْئَرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ ، وَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ
يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ . فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ
مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي ، فَنَزَلَ الْبَيْئَرُ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ حَتَّى
رَفَى فَسَقَى الْكَلْبَ . فَشَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فَغَفَرَ لَهُ » .

قالوا يا رسول الله : وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا . قال : « فِي كُلِّ كَبِدٍ
رَطْبَةٌ أَجْرٌ » . وفي رواية : « أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ
بِئَيْبَرٍ ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ ، فَنَزَعَتْ لَهُ مُوقَهَا^(٢) فَغَفَرَ اللَّهُ لَهَا بِهِ »^(٣) .

لئن كانت الرحمة بكلب تغفر ذنوب البغايا ، فإن الرحمة بالبشر
تصنع العجائب .

(١) رواه البخاري .

(٢) موقها : خفها .

(٣) رواه مسلم .

التعلم

الحمد لله ، حث على التعلم والمعرفة ، وجعل شريعة الإسلام تقوم على العلم في كل ما تدعو إليه ، سبحانه لا نحصى ثناءً عليه ، علم الإنسان ما لم يعلم ، وأنعم عليه بالسمع والبصر والفؤاد ، ليهتدى بها إلى ما ينفعه من العلم ، كما قال : (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (١).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، سيد العلماء والعارفين ، الذي من الله به على الوجود ليعلمه الكتاب والحكمة ويرشده إلى مواطن السعادة والخير .

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الهداة ، الذين أفادوا الحياة بمعرفتهم وتقواهم ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ؛ أما بعد :

فإن الإسلام قد عنى أعظم العناية بالتعلم ، وحث أمته على طلب العلم وإعمال العقل ، والبحث والتفكير في كل ميدان من ميادين المعرفة ، وكل مجال من مجالات الحياة . وما ذلك إلا لأن العلم قوام الحياة . وأساس النهضة ، وعماد الحضارات ، ووسيلة التقدم للأفراد والجماعات ، والإسلام دين الحياة الصالح لكل عصر ومكان . وهو دين ودنيا ، عبادة وحياة ، ليس كالمذاهب التي تقتصر على العبادة والزهادة وربط الإنسان بالعالم الآخر ، وإنما هو دين جامع ؛ كما يربط الإنسان بالقيم والخلق والعبادة ، يتغلغل في صميم الحياة ، ويضع القواعد التي تكفل السعادة للبشر على ظهر الأرض .

(١) سورة النحل : ٧٨ .

وشريعة الإسلام قائمة على العلم ، وداعية إليه في كل أمر من أمور الدين ،
أو أمور الحياة ، ومعجزة رسول الإسلام كانت كتاباً يتلألاً بالعلم الصحيح ،
والمعرفة الحقة . وفي أول آية نزلت منه دعوة إلى التعلم وتقديس لشأن
المعرفة ، وتنويه بقيمة القلم والقراءة لأنهما سلم المعرفة ، وطريق الوصول إلى
العلم . قال تعالى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ .
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)^(١) .
وقد أقسم الله بالقلم لما له من عظيم الأثر في محو الأمية ، ورفع مستوى
الثقافة والمعرفة ، فقال : (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)^(٢) .

وقد كرم الله الإنسان على سائر الحيوان بالعلم . وبقدر ما يحمل
الإنسان من العلم يكون فضله ومقداره ، فالعلم من خصائص الإنسان ، فإذا
تخلى عنه فقد تخلى عن إنسانيته ، ولما كان العلم يسمو بالإنسان ، ويرفع
قدره فقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم - وهم أشرف خلقه - لما فضله به
عليهم من العلم والمعرفة .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان قدوة الداعين إلى التعلم بأقواله وأفعاله .
حتى جعل التعلم فريضة لازمة لكل فرد ، لتصحيح عقيدته وعبادته وتفهم
شؤون حياته ، فقال : « طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ »^(٣) .

وفي توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى طلب العلم بين لهم
شرف السعي إليه ، والجزاء المنتظر لهم يوم القيامة فقال : « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ
لَتَتَّخِذُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ »^(٤) وقال : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا
يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ »^(٥) .

(٢) سورة القلم : ١ .
(٤) رواه أحمد وأبو حنبل والحاكم .

(١) سورة العلق : ١ - ٥ .
(٣) رواه ابن ماجه .
(٥) رواه مسلم .

ومن أفعاله صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى التعلم أنه حرر بعض أسرى بدر على أن يعلموا طائفة من المسلمين القراءة والكتابة .

ولم تكن دعوته إلى التعلم مقصورة على الرجال ، بل كانت للرجال والنساء ، فقد أثر عنه صلى الله عليه وسلم أنه طلب (الشفاء) الصحابية الكاتبة - لتعلم زوجها حفصة تحسين الخط وزخرفته .

وعلى هذا النهج النبوي الكريم سار الأصحاب والأتباع والسلف الكريم يوجهون النشء إلى التعلم ، لينشأوا صالحين لأنفسهم ؛ وللأمة التي يعيشون بينها . يقول مصعب بن الزبير لابنه : « تَعَلَّمِ الْعِلْمَ فَإِنْ يَكُنْ لَكَ مَالٌ كَانَ لَكَ جَمَالًا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ مَالٌ كَانَ لَكَ مَالًا » ، ويقول عبد الملك ابن مروان لبنيه : « يَا بَنِي تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ فَإِنْ كُنْتُمْ سَادَةً فَقُتُمُ ، وَإِنْ كُنْتُمْ وَسَطًا سُدْتُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ سُوقَةً عِشْتُمْ » ، والأمة التي لم تحظ بالعلم المثمر في كل ميدان من ميادين حياتها لا مكان لها بين الأمم .. إذ التسابق والتصارع بين الأمم في مجال العلم الحديث رهيب وعنيف ، يجعل الأمم المتخلفة التي لم تأخذ بأسباب الحضارة ضعيفة وذليلة . والإسلام ينادى أمته ويحثها على السبق في كل مضمار حذرًا من ضياعها وتأخرها فيقول : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)^(١) .

والله عز وجل قدلفت أنظار الناس إلى الكون وما فيه ، ليتعرفوا أسرارهِ ويستخرجوا كنوزه ، حيث إنه مسخر وميسور للباحثين والعاملين ، قال تعالى : (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)^(٢) .

(١) سورة الزمر : ٩ .

(٢) سورة لقمان : ٢٠ .

كما أنه أشار إلى تعلم الصناعات وكل ما يتوقف عليه العمران ، فقد خلق الحديد ، وبَيَّن أن فيه قوة لصد المعتدين ، ومحاربة الظالمين ، وفيه منافع للناس ، يصنعون منه ما يلائم عصورهم من عجائب المصنوعات ، ودقيق الآلات : (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)^(١). ويقول عز وجل : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)^(٢) . وإعداد القوة يقتضى تعلم صناعة الذخائر الحربية ، والتدريبات العسكرية التى تلائم كل عصر وتسابر كل نهضة ، ويقول تعالى : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ)^(٣).

والإسلام هو الدين الوحيد الذى أسس على العلم فى عقائده وشرائعه ، فعبقيدة التوحيد لا يقبلها الله إلا إذا كانت مبنية على العلم . ولذلك يقول تعالى : (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)^(٤) ، وذكر أن أهل العلم هم والملائكة الذين يشهدون بوحدايته : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٥).

والعلم بتوحيد الله يدرك بصدق البحث ، وإنعام النظر : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)^(٦) ، (وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)^(٧).

والدين الذى بنى على العلم يجعل السعى فى طلبه أعظم أنواع العبادات . يقول النبى صلى الله عليه وسلم : «قَلِيلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْعِبَادَةِ»^(٨).

- | | |
|------------------------------|--------------------------|
| (١) سورة الحديد : ٢٥ . | (٢) سورة الأنفال : ٦٠ . |
| (٣) سورة الفاشية : ١٧ - ٢٠ . | (٤) سورة محمد : ١٩ . |
| (٥) سورة آل عمران : ١٨ . | (٦) سورة الأنبياء : ٢٢ . |
| (٧) سورة المؤمنون : ٩١ . | (٨) رواه الطبرانى . |

كما أن العبادة التي لم يكن أساسها علماً من كتاب أو سنة لا خير فيها ولا قيمة لها عند الله عز وجل ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم : «فَقِيَهُ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ»^(١). وخطر الجهل وخيم على الأفراد والجماعات ، وقديماً قال الجهال من قوم موسى حيناً رأوا قارون في زينته وكبره ، وماله وغروره : (يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)^(٢) - حسبوا أن الحياة مطعم ومشرب وملبس وزينة . ولو تعلموا لعرفوا أن الحياة مثل وقيم ومبادئ وعمل لرضا الله ونهضة الحياة . ولذلك أدرکهم أهل العلم من جهالتهم : (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)^(٣) .

والإسلام يدعو إلى الرحلة في طلب العلم ، إذا لم يتيسر إلا في مكان بعيد ، يقول تعالى : (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ)^(٤) ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع ما لهم من علم وفير ، ومعارف جمّة ، كانوا يشدون الرحال إلى طلب العلم ويجوبون القفار بغية المزيد منه ، يقول تعالى لنبيه : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)^(٥) .

سمع موسى عليه السلام أن في الكون عبداً أعلم منه فسار إليه طويلاً حتى التقى به ، وطلب منه العلم بأدب واستعطاف قائلاً : (هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا . قَالَ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ؟ قَالَ : سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا)^(٦) .

(١) رواه الترمذي .

(٢) سورة القصص : ٧٩ .

(٣) سورة القصص : ٨٠ .

(٤) سورة التوبة : ١٢٢ .

(٥) سورة طه : ١١٤ .

(٦) سورة الكهف : ٦٦ - ٦٩ .

وقد أوجب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس أن يسعوا إلى العلماء ليتفقهوا في الدين ، ويتعلموا ما ينفعهم ، وأوجب على العلماء أن يعلموا الناس ولا يلدخروا عنهم من العلم شيئاً ؛ خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً ، ثم قال : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ لَا يُفْقَهُونَ جِيرَانَهُمْ وَلَا يَعِظُونَهُمْ وَلَا يَنْهَوْنَهُمْ . وَمَا بَالُ أَقْوَامٍ لَا يَتَعَلَّمُونَ مِنْ جِيرَانِهِمْ وَلَا يَتَفَقَّهُونَ وَلَا يَتَعِظُونَ .

وَاللَّهِ لِيُعَلِّمَنَّ قَوْمٌ جِيرَانَهُمْ وَيَفْقَهُوهُمْ وَيَعِظُونَهُمْ وَيَأْمُرُوهُمْ وَيَنْهَوْنَهُمْ وَلِيَتَعَلَّمَنَّ قَوْمٌ مِنْ جِيرَانِهِمْ وَيَتَفَقَّهُوهُمْ أَوْ لَا تُعَاجِلَنَّهُمْ بِالْعُقُوبَةِ » (١) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَنْهُومانِ لَا يَشْبَعَانِ . طَالِبٌ عِلْمٍ وَطَالِبٌ مَالٍ » (٢) .

(١) رواه الطبري في الكبير .

(٢) رواه الطبري .

الانتفاع بالوقت

الحمد لله الذى جعل الليل والنهار خِلْفَةً لمن أراد أن يذكر ، أو أراد شكوراً ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، أرسل رسوله إلى العالمين بشيراً ونذيراً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، كان للدنيا داعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً . اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيقول الحق سبحانه في كتابه الكريم : (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بِنِعْمٍ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ) (١).

أيها المسلمون : فى هذه الآية الكريمة يوجه الله جل جلاله إلينا رسالة رحيمة ، غاية فى الرحمة على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، ومضمون الرسالة يصور إشفاق العناية الإلهية على عباد الرحمن ، وحرصها على أن يبلغوا بعملهم أقصى درجات الرضا ، وأن يحاولوا استغلال كل ذرة من أعمارهم المحدودة فى كسب رضوان الله ، بإقام الصلاة ، وبالإنفاق السخى ، سرّاً وعَلَانِيَةً ، وهم قادرون على ذلك بما أوتوا من حب للخير ، وإيمان بالله ، وإحساس بقيمة الوقت المتاح لهم ، وإدراك لما وهبهم الله فى هذه الدنيا من اختيار لجانب الحق والخير ، فهم حريصون على طاعة الله فى هذه الفرصة من الزمن ، قبل أن تفلت من بين أصابعهم ، حين تنتهى أعمارهم ، وينهب معها خيارهم ، ويواجه كل امرئ بحصيلة عمله : (فَمَنْ يَعْمَلْ

(١) سورة إبراهيم : ٣١ .

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(١) .

ويلاحظ في هذه الرسالة الإلهية أمران :

أولهما : حساب الزمن ، فقد وهبنا الله سبحانه عمراً ، وجعل له خاتمة
ونهاية ، ولا ريب أن المؤمن الواعى يحس في أعماقه أنه في سياق مع هذه
النهاية ، يحاول أن يسجل قبلها أكبر قدر من العمل النافع ، الذى يحتاج
إليه : (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ
سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا)^(٢) .

فموقف الإنسان يوم الحساب مرتبط بالزمن ، فهو يحب أن يقرب
الله منه ما عمل من خير ، ويتمنى أن يجعل الله بينه وبين السوء أمداً بعيداً ،
وهيهات . إلا بفضل من الله ورحمة .

وثانيهما : أن الرسالة الإلهية تجعل من أعمال الخير التى طلبها الحق
سبحانه إلى عباده ، كالصلاة والإنفاق - رصيذاً مدخراً ، ينفع صاحبه يوم
الحساب ، وهو يوم لا بيع فيه ولا خلال ، وإنما تدور حركته على الجزاء
المؤدى لكل من قدم عملاً صالحاً ، فاستحق أن يثاب عليه ، أو اقتترف
عملاً سيئاً فاستوجب غضب الله عليه .

وقد حدثنا القرآن في كثير من المواضع حديثاً يميل إلى تصوير العلاقة
بين الخلق والخالق بصورة مادية ، برغم أنها تدور حول عقائد وقيم روحية ،
ومن أبرز الآيات في هذا قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ بِإِئْتَانٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ،
وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ،

(١) سورة الزلزلة : ٧ - ٨ .

(٢) سورة آل عمران : ٣٠ .

فَاسْتَبَشِّرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ^(١).

ولقد يبدو للنظرة الأولى أن هذا البيع مؤجل ، لأن الثمن الذى يدفعه الله جل شأنه سوف يكون يوم القيامة . ولكن المؤمن الحق يستشعر فى أعماقه أن الجزاء على هذا النحو معجل . لأنه يستحضر دائماً فى قلبه معانى الآخرة ، ويستعجل لقاء الله بالشهادة فى سبيله ، وحينئذ يجد ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

تلك عقيدة - لا أسطورة . حقيقة - لا وهم . واقع - لا خيال .

أيها المسلمون : إننا فى ضوء هذه الرسالة الإلهية : (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)^(٢) - فى ضوء هذه الرسالة الخالدة نحس بمشكلة من مشكلاتنا الحيوية ، مشكلة الانتفاع بالوقت ، والإفادة من كل لحظة من لحظاته .

إن الإحساس بالزمن يتفاوت من شخص إلى شخص ، كما يختلف من أمة إلى أمة ، ولم يعرف التاريخ أمة قدس دستورها الزمن ، وعظم شأن الوقت ، كهذه الأمة المحمدية ، التى حدثها الله سبحانه دائماً عن نفسه ، وعن خلقه ، حديثاً مقيساً بكل دقة ، وذلك على سبيل التربية ، كما هو من باب وصف نظام الكون : (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُتٍ)^(٣).

لقد حدث الله عن خلق السموات والأرض ، فذكر أنه كان فى ستة أيام ، وحدث عن أمره وإرادته لما يوجد من مخلوقات ، فذكر أن ذلك يتم فى غير زمان : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)^(٤).

(٢) سورة إبراهيم : ٣١ .

(٤) سورة يس : ٨٢ .

(١) سورة التوبة : ١١١ .

(٣) سورة الملك : ٣ .

فأمره بين الكاف والنون ، كما يقولون . وحدّث عن علمه سبحانه بالخلق ، وأحوالهم ، فذكر أن ذلك يتناول أدق الأمور ، وأنه يتم على قياس دقيق ، بالغ الدقة ، شامل لكل موجود : (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ، وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ ، وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِحَقِّقَدَارٍ) ^(١) ، والمقدار هنا كما يكون وزناً ، يكون زماناً أيضاً .

وحدّث سبحانه عن تسجيل أعمال الخلائق فذكر أن ذلك يتناول كل جزئية من أعمارهم ، حتى ما لا يتصورون أنه يدخل في حساب : (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ . وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ، مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) ^(٢) .

وحدّث سبحانه عن حسابيه للخلق فذكر أنه يتم بميزان ذرّي ، لا تفوته الخردلة ، ولا تسقط منه الذرة : (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ) ^(٣) .

بل لقد حدثنا حديثاً رهيباً عن طريقة الحساب على الزمن الماضي ، والعمر الضائع ، في آيات بينات تتصدع لسماعها القلوب : (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) ^(٤) .

هذه هي الدقة الإلهية ، التي حكاها الله سبحانه لعباده ، كما يتعلموا

(٢) سورة الكهف : ٤٩ .

(٤) سورة المؤمنون : ١١٢ - ١١٦ .

(١) سورة الرعد : ٨ . م

(٣) سورة الأنبياء : ٤٧ .

منها دروس الحساب ، الذى يضبط حياتهم ، ويرفع شأنهم ، ويدعم وجودهم ، ويجعلهم بحق أمة وسطاً ، شهداء على الناس .

إن الدقائق والثوانى فى أعمار الأمم ، وفى حياة الأفراد لها وزن وحساب ، فالساعات الطويلة ليست فى حقيقتها سوى دقائق وثوان ، وضياح الثوانى هو فى حقيقته ضياح لتلك الساعات ، التى ينقضى بمرورها عمر الإنسان ، وينتهى بها كفاحه من أجل الحياة ، ومن أجل التقدم ، ومن أجل الآخرة . والواقع أن الثروة التى يجمعها أى إنسان مكافح ليست سوى كمية من الزمن تحولت إلى ذهب . وكان من الممكن أن تتحول إلى دخان ينبعث من نرجيلة ، كما كان من الممكن أن تتحول إلى شخير ينطلق من صدر نائم خامل ، أو شهوة خاطفة تمضى وتغلف لصاحبها حسرة العمر ، على الضياح والغفلة وعذاب الضمير ، وحساب الآخرة .

كم من الساعات والأيام والسنين تضيع فى حياة هذه الأمة ، على المقاهى ، وفى البارات ، وفى ضروب اللهو ، وفنون الرخاوة والتهتك ؟ . . . بل فى النوم والكسل ، والفوضى والثروة داخل البيوت ، والمكاتب ، والمصانع ، والدواوين ؟

على حين يسهر أعداؤنا ويكدحون فى كل دقيقة ، بل فى كل ثانية من أجل تحصيل أسباب القوة ، ومن أجل فرض سيطرتهم على مصاير العرب والمسلمين ! !

فتحن نضيع السنين ولا نحس بمرورها ، وهم يحاسبون أنفسهم على الثوانى مخافة أن تمضى دون إنتاج ، لأن الزمن جزء من تقدمهم ونجاحهم ، كما هو جزء من ضياعنا وفشلنا .

ونحن - المسلمين - مأمورون أن نحافظ على الوقت ، وأن نعمل حساب

المستقبل . في نصوص عقيدتنا ، وفي سلوك أسلافنا ، وفي شائثر ديننا الحنيف .

لقد أمرنا بالصلاة خمس مرات ، في أوقات معلومة ، وشرع الله الأذان إعلاناً لحلول الوقت ، وإيذاناً ببداية تكليف جديد ، متجدد دائماً ، وحذر الله سبحانه المؤمنين أن يغفلوا عن إقام الصلاة ، ووعد الطائعين بثوابه إذا هم حافظوا عليها ، كما جعل الإسلام من آدابه ألا يضيع وقت المؤمن في لغو الحديث ، فلا وقت لدى المؤمن للغو ، بل كل وقته للعمل ، العمل الجاد المثمر : (وَلَا إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)^(١).

بل لقد بالغ الدين في تحديد معالم الحلال والحرام في مريضة الصيام ، فجعلها مرتبطة بالفرق بين خط الضوء وخط الظلام ، وهو أمر دقيق القياس : (وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)^(٢).

بهذه التربية الحكيمة ، وبهذا الحساب الدقيق حافظ المسلمون الأوائل على دينهم ، وأقاموا أحكام شريعتهم ، وأسسوا للدنيا حضارة شامخة ، دونها كل حضارة ، وقدموا لنا نماذج صالحة ، وقدوات لم يعرفها تاريخ الإنسان ، ففازوا بالحسنين ، عزة الدنيا ، وسعادة الآخرة .

كان المؤمن بالتزامه أوامر دينه ، وإحساسه بقيمة الزمن من حوله ، نموذجاً ممتازاً ، في صحته ، وفي قوته ، وفي سلوكه وفي تربيته لأهله ، وفي علاقاته بإخوانه ، وفي أدائه لواجبه ، وفي صدقه في معاملته ، وفي اطمئنانه

(١) سورة القصص : ٥٥ .

(٢) سورة البقرة : ١٨٧ .

المرتسم على وجهه ، وفي رضا نفسه الذى يشع من عينيه ، ويفيض على كل من حوله .

وأنتم أيها المسلمون مدعوون إلى أن تكونوا كآسلافكم ، فهماً للدين ، وتطبيقاً لأحكامه .

أنت أيها الفرد المسلم مدعو لتكون نموذجاً تتمثل فيه أوامر دينه ، أنت لست أقل من أى فرد فى صفوف أعدائك ، بل إنك خير منه ، بالعقيدة والإيمان ، وهو أقل منك بالكفر والطغيان ، فحاول أن تحول وقتك إلى عمل صالح ، وإلى إنتاج ثمر ، وإلى نظام ناجح ، يعود عليك ، وعلى أمتك بالخير وبالتوفيق .

وأنتم أيها المسلمون على أبواب كفاح طويل ، تحاولون به أن تؤكدوا وجودكم فى العالم ، فى مواجهة قوى الشر والعدوان ، ولا سلاح لكم إلا الوقت ، الذى هو أسمى سلاح ، تستطيعون أن تحولوه إلى مصانع ، وإلى معامل ، وإلى مصادر للقوة ، وللثروة ، وللسلاح الذى تحاربون به عدو الله وعدوكم ، فامضوا باسم الله وعلى بركته ، فاصنعوا من أعماركم ، من أيامكم ، من دقائقكم وثوانيكم أسلحة للنصر ، وعدة للبقاء ، ومعبراً للخلود ، وطريقاً إلى رضوان الله : (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) (١) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه : «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، فَسَتَكُونُ فِتْنٌ كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ ، يُضَيِّحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا ، وَيُخْسِي كَافِرًا ، وَيُخْسِي مُؤْمِنًا ، وَيُضَيِّحُ كَافِرًا ، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» (٢) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » ، وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : « إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصُّبْحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ » (١) .

الشجاعة

الحمد لله ، القائم على كل نفس بما كسبت ، والمجازى لها بما عملت ،
وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، اشترى من المؤمنين أنفسهم
وأموالهم بأن لهم الجنة ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أثبت الناس
قلباً ، وأشجعهم عقلاً ، وأحرصهم على لقاء الله . اللهم صل وسلم وبارك
على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، الغر الميامين ، الذائدين عن دينه ،
والناصرين لشريعته ، ومن اتبعهم إلى يوم الدين .

أما بعد ؛ فيقول الحق سبحانه في كتابه الكريم : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحَفًا فَلَا تُلَاقُوهُمْ إِلَّا دُبَارًا ، وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ
إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ، أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ
جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) ^(١).

أيها الناس : في هذه الآية الكريمة أمر من الله سبحانه ، موجه إلى
المؤمنين ، ألا يفروا عند لقاء العدو ، إلا لحيلة في القتال ، واستعداد للكفر
والهجوم ، وإلا فإن غضب الله يلحق الفار في الدنيا ، وعذاب الله ينتظره
في الآخرة ، وبئس المصير .

وقد أخذ الفقهاء من هذه الآية حكماً بحرمة الفرار من وجه العدو ،
ما لم يبلغ عدد جنوده أضعاف عدد المسلمين ، لقوله تعالى : (الآن خَفَّفَ اللَّهُ
عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) ^(٢).

(١) سورة الأنفال : ١٥ و ١٦ . (٢) سورة الأنفال : ٦٦ .

وحرمه الفرار من وجه العدو متأكدة بالأحاديث الصحيحة أيضاً ، حين عدّها رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمن السبع الموبقات ، فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ ، قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ . . قال : الإِشْرَاكُ بِاللّهِ ، وَالسُّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّجْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ »^(١) فقد عد الرسول صلى الله عليه وسلم الفرار من العدو مستاوياً للشرك بالله ، ولقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق .

وهكذا نجد أن الأمر في نظر الدين لا يُعدُّ مجرد وصية أخلاقية ، وتوجيه روحى ، ولكنه تنظيم اجتماعى ، وقانون عسكرى صارم ، يترتب على مخالفته غضب الله ، وعذاب جهنم وبئس المصير . وهما عقوبتان لا يهرب المؤمنون أكثر منهما .

فالمؤمنون لا يهربون العدو مهما عظمت قوته ، لأنهم موقنون أن الله أكبر ، وأنه سينصرهم ما داموا ثابتين على عهده : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ)^(٢) . فليس النصر بالقوة المجردة ، ولكن بالإيمان الشجاع والإرادة القوية ، ولا جدوى من سلاح لا يجد إيماناً يحمله ، وعزماً يحركه ، وعقيدة تدفعه إلى النصر .

ومقتضى ثبات المؤمن في وجه أعداء الله مهما كثر عددهم ، ومهما قويّت عدتهم - مقتضى ذلك أن تكون لديه الشجاعة القائمة على الإيمان

(٢) سورة آل عمران : ١٧٣ و ١٧٤ .

(١) رواه البخارى ومسلم .

بالتضحية ، وأنه ليس له خيار إلا بين أمرين : فإما أن ينتصر فتعلو كلمة الله ، وإما أن يُستشهد في سبيل الله ، فهو قد خلف من ورائه كل متاع الحياة ، وأقبل على قتال العدو بقلب ثابت ، وأعصاب متينة ، وسلاح ماض ، وإيمان بالله وبالحق لا يتزعزع ، وهذه هي عدة النصر على أعداء الله . من أجل إعداد الفرد المسلم الشجاع ، ومن أجل إعداد الأمة المسلمة الشجاعة وضع الإسلام تشريعاً وبرنامجاً لممارسة هذا الخلق النبيل على مستوى الفرد ، وعلى مستوى المجتمع بأكمله ، فجعل الشجاعة تكليفاً إسلامياً يلتزم المسلم أدائه في الحرب وفي السلم .

فالشجاعة في الحرب واضحة المعنى ، متمثلة في الثبات عند الزحف ، والإصرار على القتال حتى النصر أو الشهادة . ولكن الشجاعة في السلم تأتي بصورة أخرى تميز بها المجتمع الإسلامي ، حتى صارت شعاراً يرفعه الفرد ، وتحمل لواءه الجماعة عند الاقتضاء .

واذكروا أيها المسلمون ما شرعه الإسلام من ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أيمن أن يأمر الإنسان بمعروف ، أو ينهى عن منكر بدون أن يكون شجاعاً ؟ . . إن الجبان لا يستطيع الإقدام على هذه المهمة ، لأن من شأن الجبناء أن يحرصوا على الحياة ، أو على المكاسب العاجلة ، أو على المصالح الزائلة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يترتب عليهما ضياع الحياة ، أو ضياع المال والمصلحة .

ولذلك أعلى الدين من شأن هذا الخلق ، وعده في بعض المواقف من أفضل مراتب الجهاد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ »^(١) - وهو في الواقع أفضل جهاد وأشرفه ، لأنه

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه .

أثقل تكليف ينهض به فرد مسلم ، فالجندى حين يخوض غمرات الحرب ينسى نفسه ، ولا يرى أمامه إلا لهيب المعركة ، فتتهون عليه في غمرة الحرب نفسه ، أما المسلم حين يقف في موطن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقولة الحق لدى إمام جائر ، فإنه يكون مدركاً لكل شيء ، متبصراً بكل عاقبة ، شاعراً بأنه قد يلقى مصيره نتيجة كلمة تخرج من فمه ، ومع ذلك يحمله إيمانه بالله ، وعزمه على أداء واجبه ، على أن يقول الحق لا يخشى في الله لومة لائم ، فهذا العمل أمرٌ وأقصى من الجهاد في ميدان القتال ، وهو كذلك أخطر أثراً ، لأنه يصون به حرمان المؤمنين ، ويذود عن حقوق المظلومين .

هذا هو شأن المسلم في أوقات السلم ، وتلك هي مهمته التي ندب إليها وهي مهمة لا تعرفها أمة غير هذه الأمة التي وصفها رب العزة بقوله : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)^(١) ، وقال عنها : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) ، وصدق الله العظيم ، فقد وصف أمة محمد عليه السلام بأنها أشجع الأمم ، حين ذكر أنها خير أمة أخرجت للناس .

ولكى ندرك - أيها المسلمون - قيمة هذه الخلة الشجاعة في تكوين أمتنا - علينا أن نتذكر أن بني إسرائيل عجزوا عن ممارستها والتخلق بها ، فوصفهم الله سبحانه بالرخاوة ، وبالتستر على المنكرات ، وبالعجز عن مقاومتها ، ولعنهم في محكم كتابه حين قال : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا

يَعْتَلُونَ ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١) .

أيها المسلمون : لقد كانت الشجاعة خلق نبيكم صلى الله عليه وسلم منذ بدأ دعوته ، إلى أن صعد إلى الرفيق الأعلى .

كان شجاعاً حين خرج على قومه بدعوة ينكرونها جميعاً ، وليس له من معين سوى ربه ، فأصر على الدعوة ، وصمد للمقاومة .

وكان شجاعاً حين عرضت عليه المغريات من المال والملك والعجاء ، في نظير أن يتنازل عن دعوته ، فرفضها في إباء ، وأصر على بلوغ النصر أو يهلك دونه .

وكان شجاعاً في مواجهة المقاطعة التي استمرت سنوات ، حتى كان أهله وأصحابه يأكلون ورق الشجر ، ومع ذلك لم يهن ولم يضعف ، ولم يستكن ، وسقطت المقاطعة ، وانتصر الحق .

وكان شجاعاً حين خاض بنفسه غمرات الحرب ، وقاتل دفاعاً عن الدين ، وردعاً للمشركين عن اضطهاد المؤمنين ، حتى قال فيه على رضى الله عنه ، « كنا إذا اشتدَّ البأس ، وحمل الوطيس اتقىنا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه » .

وكان شجاعاً ، حتى حين انفض عنه الناس ، وهربوا من وجه العدو يوم حنين ، فثبت معه نفر من أصحابه ، فأنزل الله مكينته عليه وعلى المؤمنين ، وانتصروا على عدوهم .

وكان شجاعاً في مواقف السلام ، يؤثر الحكمة ، والموعظة الحسنة ، حتى يبلغ أمر الله .

ولقد أفاد منه الصحابة هذا الخلق فتمسكوا به ، وأظهروا في مواجهة

العدو ضرورياً من الإيمان ، والإقدام ، والتضحية ، لم يعرفوا التخاذل ، ولا جربوا الخيانة ، وكان الفرد منهم يحمل الراية ، ويدافع عنها ، ويتلقى في سبيلها الطعنات في وجهه ، وفي صدره ، وفي بطنه ، حتى يسقط. مضرباً بدمه ، دون أن تصيبه ضربة واحدة في ظهره ، كان دافعهم إلى القتال الحب ، لا الخوف ، حب الله ، وحب الدعوة ، وحب الداعية ، وحب الموت ، لا خوف العدو ، أو خوف السلطة . التي جمعتهم للحرب ، وهكذا يصنع الحب المعجزات .

عن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان في غزوة مؤتة قال : « فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى : فوجدنا بما أقبل من جسده بضعا وتسعين ، بين ضربة وزمية وطعنة . وفي رواية : فعددنا به خمسين طعنة وضربة ، ليس منها شيء في دبره » (١) .

وجعفر بن أبي طالب هو مثال من آلاف الأمثلة ، التي كان عليها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من المؤمنين ، أحبوا الله فأحبوا لقاءه ، ويا له من لقاء شجاع بين الله وبين أحبائه : (فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ، وَالصُّدُقِيِّينَ ، وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) (٢) .

فاتقوا الله أيها المسلمون ، واعلموا أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها وما قدر لها ، ولن يطيل الجبنُ عمرَ الجبان ، كما لن تقصر الشجاعة عمر الشجاع ، بل قد يحدث العكس ، يموت الجبان في فراشه ، ويطول عمر الفارس الشجاع ، ولذلك قال الأوائل : « احصرص على الموت توهب لك الحياة » .

اذكروا دائماً أن الشجاعة لا تعنى التهور أو الطيش ، وإنما هى استعمال الوسيلة المناسبة فى الموقف المناسب ، فللشدة والعنف مجالهما ، وللحكمة والصبر مجالهما أيضاً ، وصدق رسول الله إذ يقول : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » . وتلك هى الشجاعة مع النفس لكبح جماحها ، وتأديب شهواتها .

واذكروا دائماً أن أكرم ميتة يلقاها المؤمن هى ميتة الشهادة فى سبيل الله ، وأنه ما من عبد يموت يتمنى أن يعود إلى هذه الدنيا ، إلا الشهيد ، فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنْ أَغْرَوْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلَ ، ثُمَّ أَغْرَوْ فَأُقْتَلَ ، ثُمَّ أَغْرَوْ فَأُقْتَلَ » (١) .

واذكروا أخيراً أن الشجاعة لازمة للدود عن الدين ، وللدفاع عن المال ، ولحماية العرض ، ولحفظ النفس ، وأن الموت فى سبيل هذا كله شهادة فى سبيل الله ، فإما أن يعيش المرء حراً آمناً على دينه ، وعلى أهله وماله ونفسه ، وإما أن يموت ميتة كريمة ، يكون بها عند الله كما قال : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ) (٢) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ،

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما . (٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) سورة آل عمران : ١٦٩ و ١٧١ .

وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ^(١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »^(٢) .

(٢) رواه الترمذی .

(١) رواه أبو داود والنسائي والترمذی .

شجاعة السلف

الحمد لله الذى أثنى على عباده المستمسكين بالحق ، المدافعين عن عقيدتهم بقوله : (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)^(١) . وأشهد أن لا إله إلا الله جعل عبادة المؤمنين أقوى إيماناً ، وأقوم قبلاً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، خير الناس ديناً ، وأهداهم سبيلاً . اللهم صل على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه ، الذين كانوا مثلاً عالية في شجاعة الرأى والقلب والعمل ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن الإسلام عقيدة ، وشريعة ، وعمل ، ودين يتطلب من المسلمين أن يعملوا لدنياهم ولآخراهم ، فهو يريدهم أن يكونوا أقوياء أصحاب سادة ، ويريدهم أن يكونوا شجعاناً فيما يقولون وفيما يفعلون ، لا يخشون في الله لومة لائم . وليست الشجاعة مقصورة على الحروب والمعارك ، فإن الدعوة إلى الحق في عالم ضال شجاعة ، والدعوة إلى الإصلاح في أمة فاسدة النظم شجاعة ، والاستمسك بالعقيدة مهما أودى صاحبها شجاعة ، والدفاع عن الدين أو العرض أو الجار المضطهد أو المستجير المظلوم شجاعة .

وإنما تعد الشجاعة فضيلة ، لأنها مجازفة بالحياة ، والحياة أغلى ما يملك الإنسان .

أما الجبن فإنه رذيلة ، لأنه رضا بالمذلة ، وإيثار للسلامة على الحق وعلى الكرامة ، ونذير باستمرار الضعف والتخلف والفوضى .

(١) سورة الأحزاب : ٢٣ .

وإن تاريخ الإسلام لحافل بأعلى المثل في الشجاعة التي ناصرت الحق على الباطل ، وآزرت الخير على الشر ، وظهرت الصلاح على الطلاح ، إذ كان المسلمون الأولون يعملون بقوله تعالى : (لَتَبْلُغُوا فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) ^(١) ، وقوله تعالى : (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَأُودُوا فِي سَبِيلِي ، وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) ^(٢) . وكانوا يعملون بقوله جل شأنه : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) ^(٣) ، فالسلم لا يقدم على حب الله ورسوله شيئاً مما يحرص عليه عبيد التراب .

ولقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يقود المعارك ، ويديرها ، ويتقدم الصفوف ويتصدى لكل بطل موهوب ، حتى إن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : كنا إذا حمى البأس - الحرب - اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو .

وقد ثبت في مؤيد - ثبات البطل الغلاب ، ولم يشنه أنه رأى أكثر من معه يلوفون بالأسوار من مباغنة الأعداء المتربصين لهم في ظلمات الليل بمضايق الجبال . نعم ؛ في ذلكم الوقت الرهيب دعر المسلمون ، وتفرقوا . يطلبون النجاة ، لكن النبي ثبت في مكانه ، ومعه نفر من المهاجرين

(١) سورة آل عمران : ١٨٦ . (٢) سورة آل عمران : ١٩٥ .

(٣) سورة التوبة : ٢٤ .

والأنصار ، وهو يقول : « أَيُّهَا النَّاسُ ، تَعَالَوْا إِلَىَّ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ ، أَنَا مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ » ، لكن صيحته هذه كانت لا تسمع في ضجة الفرار والاضطراب ، فأمر عمه العباس أن يناديهم ، فاجتمع إليه مائة استبسلا ، وقتلوا مع رسول الله حتى تم له النصر على الأعداء .

وكان أبو بكر شجاعاً لا ينثنى عن عزيمة يعتقد أن فيها خيراً للإسلام ، فقد فوجئ إثر توليه الخلافة بارتداد العرب عن الإسلام ، ما عدا مكة والمدينة وما حولهما ، وكان هذا الارتداد ممثلاً في رفض الصلاة ، أو في رفضهم الزكاة ، أو في رفضهما معاً ، فاستشار أبو بكر كبار الصحابة فأشار عليه بعضهم أن يترك المرتدين الآن وشأنهم ، لأن المسلمين الباقين لا طاقة لهم بالعرب الذين ارتدوا ، ولأن جيش المسلمين غائب في شمال الجزيرة العربية . ولكن هذه المشورة لم تصادف من نفس أبي بكر قبولا ، فصاح فيهم بقوله : « وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا تَرَكْتُهُمْ ، وَلَوْ خَذَلَنِي النَّاسُ كُلُّهُمْ لَجَاهَدْتُهُمْ وَخِدِي » .

ولم تكن المشكلة في نظر أبي بكر رضى الله عنه مشكلة الصلاة والزكاة ، بل كانت صدعاً في الوحدة ، لأن المرتدين جماعات من الأمة الإسلامية التي كونها الإسلام من قبائل متناحرة ، متنازعة ، فكانت وحدتهم نعمة عظيمة من الله بها عليهم في قوله سبحانه : (وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ^(١) مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا)^(٢) . فكيف يطبق الى الأمة أن يترك أعضاء الأمة تتفرق ، ويشهد وحدتها تتمزق ، ويمكن للعصاة الثائرين لأغراض شخصية أن يحققوا أغراضهم ؟ !

(١) شفا حفرة : حافتها .

(٢) سورة آل عمران : ١٠٣ .

وأراد الله للإسلام النصر ، فانتصر أبوبكر على المرتدين ، وعادت للمسلمين وحدتهم .

كذلكم كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه شجاعاً في إعلان رأيه ، وشجاعاً في دفاعه عن دينه ، فقد أسلم وأعلن إسلامه متحدياً قريشاً ، وهو يعلم أنها تنكل بمن يسلم ، فلما تجمعت لتصدده وثب على عتبة بن ربيعة فصرعه ، وجثم على صدره ، وكلما دنا منه أحد غلبه ، حتى كفوا عنه وهو يقول : « افعلوا ما بدا لكم ، فوالله لو كُنَّا ثلثمائة رجلٍ لتركتموها لنا أو تركناها لكم » .

ثم وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله ، ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا ؟ فقال الرسول : بلى ، والذي نفس محمد بيده ، إنكُم على الحق إن متُّم وإن حييتُم . قال عمر : ففيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجنَّ » .

فما لبث النبي أن خرج في صفين ، يتقدم أحدهما عمر ، ويتقدم الآخر حمزة ، وساروا في مظهر القوة الساندة للحق ، حتى دخلوا المسجد ، وقريش تنظر وتعلوها كآبة ، ولكن لا يجروا أحد منها أن يدنو من صفين يتقدمهما بطلان ، واستحق عمر من ذلك اليوم أن يسميه النبي : « الفاروق » . وبعد قليل هاجر عمر من مكة جهرة وعلانية ، فتقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، ومضى إلى الكعبة ، وقريش بفنائها ، فطاف بالبيت طواف الجريء ، المتمكن ، ثم صلى ، ثم وقف على حلقات قريش حلقة حلقة ، وقال لهم : شأهت الوجوه ، من أراد أن يشكل أمه ، أو يؤتم ولده . أو يرمل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادى .

ثم لما صار خليفة ربى المسلمين على خلق الشجاعة ، فحضرهم على

التحلى بها ، يريد بذلك إعدادهم لها ، وإيلافهم إياها .

وكذلك كان على بن أبي طالب كرم الله وجهه بطلا شجاعاً منذ شبابه إلى وفاته ، كان شجاعاً في كل حرب خاضها ، وكان شجاعاً في كل رأى أذاعه ، أو عمل قام به . وحسبنا أن نذكر من شجاعته في هذا المقام أنه لما تولى الخلافة بعد عثمان رضى الله عنه عزل الولاة الذين أساءوا الحكم أيام عثمان ، واستحلوا الغنائم المحظورة ، وأثاروا المسلمين وردّ إلى خزانة الأمة ما كان قد توزعه بنو مروان بن الحكم ، ولم يعباً في عمله هذا بما جره عليه من غضب وتمرد وعصيان ، وسرعان ما تألب عليه الولاة المعزولون وذوو النفوذ والمنافع ، والطامعون في المناصب والأموال والجاه والسلطان .

ولقد جاء المغيرة بن شعبه فقال له : إن لك حق الطاعة والنصيحة ، وإني أنصحك أن تقر معاوية على عمله ، وأن تقر العمال على أعمالهم ، حتى إذا أتتك طاعتهم ، وبائعك من معهم من الجنود عزلتهم أو أبقيتهم . لكن الإمام علياً كان شجاعاً وكان صريحاً ، وكان لا يحب المواربة والخداع ، فأبى أن يقبل نصيحة المغيرة ، وقال : لا أدهن - لا أناق - في ديني ، ولا أعطى الدنيا في أمري .

أيها المسلمون . . .

هذه لمحة سريعة إلى شجاعة المسلمين الأولين ، تبين أنهم ارتفعوا ، بشجاعتهم على حب الحياة ، وأنهم استهانوا بالآلام وبالموت ليكفلوا لدينهم النصر ، وليؤيدوا الحق ، ويعلموا منار الهدى والإصلاح .

فهل عقت النساء أن يلدن في هذا العصر آلافاً من أمثال أولئك الأبطال ؟

لا ، لم تعقم النساء ، ولكن الأخلاق الإسلامية في حاجة إلى بعث وإحياء ، والشباب في حاجة إلى تربية إسلامية صحيحة ، تفرس في نفوسهم العزة والشجاعة ، وتحببها إليهم ، وتبعد عنهم الجبن والاستسلام ، والذل ، وتبغضه إليهم ، وتذكرهم بمثل قول خالد بن الوليد وهو على فراش الموت : «لقد شهدتُ مائةَ زحفٍ أو زهاءَها ، وما في بدني موضعٌ شبرٍ إلا وفيه ضربةٌ أو طعنةٌ أو رميةٌ ، وهانذا أموت على فراشي كما يموت البعير - فلا نامتُ أغين الجبناء » .